الهم الاجتماعي

قراءة في «بـؤس العالَم» لپيير بورديو و آخرين

صدرت منذ فترة طبعة شعبيّة لمؤلّـف ضخم، مرجع سوسيولوجيّ لا غنى عنه، كان عالم الاجتماع الفرنسيّ پيير بورديو Pierre Bourdieu قد أصدره منذ سنوات بعنوان «بؤس العالَم» La misère du monde عن منشورات «لوسوي» Le Seuil بباريس. جنّد بورديو ما ينيف على عشرين باحثاً اجتماعيّاً توزّع معهم المهامّ وقاموا جميعاً بجردة واسعة لمظاهر العُسر التي يعاني منها المجتمع في فرنسا بمختلف عناصره المكوّنة، بما فيها، بل خصوصاً، مختلف فئات المهاجرين والأجانب. ولقد عمدوا إلى تحقيقات سوسيولوجيّة أو اجتماعية وحوارات موسّعة وأردفوها بتحليلاتهم لنتائج هذه الحوارات ورؤيتهم لمصادر عسر المجتمع الفرنسيّ والمهاجر. وبمناسبة صدور هذه الطبعة الشعبيّة، ونظراً للأضواء الحادّة والكاشفة التي يسلّطها الكتاب على الظواهر المعالَجة، ارتأينا أن نعرض في الفقرات الخمس التالية عدداً من فصوله الأساسيّة. في الفقرة الأولى نتوقّف عند الأسلوب الذي اتّبعه بورديو والمتعاونون معه في إجراء الحوار والتحقيق السوسيولوجيّين. وفي الثانية نقدّم رؤية بورديو لما يدعوه باستقالة الدولة. وفي الثالثة عند ما يراه من مساهمة للنظام التربويّ والمدرسيّ في مفاقمة الأزمة. وفي الرابعة عند تحليل أحد مؤلّفي الكتاب، پاتريك شامپاني، لمسؤوليّة وسائل الاعلام. وفي الفقرة الخامسة والأخيرة عند تجارب مغاربيّة عرضها المؤلّفون وحلّلوها.

أسلوب في الحوار:

في دراسة حملت عنوان «أنْ نفهم» وتمثّل ما يشبه المفتاح المنهجيّ للكتاب، يبدأ بورديو بالتذكير بأنّ عقوداً عديدة من السنوات أمضاها في إجراء التحقيقات والاستفتاءات السوسيولوجيّة، علّمته بأنّ هذه الممارسة لا تجد تعبيرها المناسب لا في الوصفات المنهجيّة المعدّة سلفاً والتي تظلّ علمويّة أكثر منها علميّة، ولا في التحذيرات من العلم الداعية الى الانصهار العاطفيّ أو الشعوريّ بين مُجري التحقيق والمجرى معه التحقيق أو بين المستجوب (بكسر الواء) والمستجوب (بفتحها). ومن هنا تنبع في رأيه ضرورة تحديد المبادئ والمعايير التي أجريَت على أساسها عشرات التحقيقات التي استمدّ منها هذا العمل الضخم مادّته ومحتواه. لا شكّ أنّ العلاقة التي تقوم أثناء التحقيق بين المستجوِب والمستجوَب، إن كان مبتغاها الأساس هو إقامة مقاربة معرفيّة، فهي تظلّ تمثّل علاقة اجتماعيّة كبقيّة العلاقات. أي أنّ لها نتائجها وآثارها المتباينة على التبادل الناجم عنها. وإذا كان الطابع العلميّ أو المعرفيّ لهذه العلاقة يُبعد عنها مبدئيّاً أو بالضرورة كلّ ممارسة لأيّ من أنواع العنف الرمزيّ القادر على التأثير على نوعيّة الأجوبة، فمع ذلك لا يمكن في مثل هذه الاجراءات الركون إلى الإرادة أو النيّة وحدهما، وتظلّ جملة احتياطات منهجيّة وعمليّة تفرض نفسها في هذه العلاقة. إنّ ثمّة التواءات ممكنة في هذه العلاقة كما في سواها، ووحدها الاحتياطات المتّخذة

بكامل الوعي تمكّن من تطويع هذه الالتواءات.

القاعدة الأولى التي يطالب بورديو بتوفّرها لدى الباحث السوسيولوجيّ القائم بالتحقيق أو المحاورة تتمثّل في ما يدعوه بالانعكاسيّة Réflexivité ، وهي أن يطبّق الباحث قواعد مهنته ومبادئها القيميّة على عمله نفسه. إنعكاسيّة أي منعكسة على الذات. وهو يدعو إلى أن تشكّل هذه الانعكاسيّة نوعاً من ردّ ة الفعل الدائمة، ومن الغريزة، تتأسّس على مراس مهنيّ وعلى «عين» أو نظرة سوسيولوجيّة تتيح السيطرة على مجرى الحوار وعلى نتائج البنية الاجتماعيّة التي يتحقّق الحوار فيها. فكيف تطمح السوسيولوجيا الى تشكيل عِلم للفرضيّات والأحكام المسبقّة من دون أن تعمل على تحليل فرضياتها المسبّقة وأحكامها هيَ؟ إن الحلم الوضعيّ ببراءة معرفيّة أو ابستمولوجيّة كاملة يتخفّى في الواقع على الجهل بأنّ الفارق لا يقوم بين علم يمارس بناءات نظريّة (أي يقيم مقدّماته ثمّ يسعى الى التحقّق منها) وعلم آخَ ر لا يمارس مثل هذه البناءات. بل الفارق يقوم بين علم يمارس ذلك من دون أن يعلم، وعلم آخر يعلم أنّ ه يمارس البناء النظريّ فيجهد في معرفة أفعال بنائه هذا وتطويع نتائجها المحتّمة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

ينبغي التساؤل عن الآثار التي تنجم عن العلاقة بين المتحاورين، وبالخصوص آثار الحوار نفسه على المستجوَ ب، على نظرته الى هذه العلاقة التي يمكن أن تبدو له كمثل تسلّل إلى عالمه الشخصيّ ، وعلى شاكلته في تلقّي هذا التبادل، ما دام الحوار السوسيولوجيّ والاستفتائيّ يشكّل نمطاً من أنماط التبادل. ينبغي التساؤل عن آثار التشجيع المعطى له أو المرفوض عنه في أثناء الحوار، طبيعة إدراكه لكامل الوضع وفهمه لغايات الحوار والنتائج المنتظرة أو غير المنتظرة منه.

إنّ الباحث هو الذي يقيم غالباً إن لم نقل على الدوام قواعد اللعبة، أو كيفيّ ات الحوار، بصورة أحاديّة ومن دون تفاوض. هذا انزياح أو تفاوت يأتي ليضاعفه تفاوت آخر، اجتماعيّ هذه المرّ ة، كلّما كان القائم بالحوار يشغل مكانة اجتماعيّة ومهنيّة متفوّ قة على هذه التي يشغلها الطرف الآخر، الشخص «الخاضع» للمحاورة. هكذا بحيث يتفاوت سوق الممتلكات اللغوية والرمزيّ ة الذي ينشأ في المحاورة بمقتضى العلاقة الموضوعيّة التي تقوم بين المتحاورَ ين، بل بين الرساميل من كلّ نوع، وبالدرجة الأولى اللغويّ ة، التي يمتلكها المتحاوران.

انطلاقاً من هذا الوعي بالانزياحات والتفاوتات الممكنة، وبغية تطويع آثارها الرمزيّة إلى أقصى حدّ ممكن، صار يلزم العمل على اجتراح إصغاء منهجيّ وفعّال يبتعد في الأوان ذاته عن عفويّة الحوار غير الموجَّه وعن نوع من التسلّط أو القرار المسبق يرافق عادةً الاستفتاءات (الإجابات المقدّمة على استمارات معدّة سلفاً). في هذه التجربة كان ينبغي، كما يعبّ ر بورديو، الاعراب عن حضور كامل أمام المستجوَ ب، إرادة في تلقّ ي خطابه، وامتثال لتاريخه الخاصّ يمكن أن يقود، بفضل نوع من التكيّ ف أو المحاكاة شبه المدروسة، إلى تبنّ ي لغته والدخول في وجهات نظره ومشاعره وأفكاره، وذلك ضمن بناء منهجيّ تساعد عليه معرفة بالشروط الموضوعيّة التي تتحكّم بالوضع كلّه وبالمحاورة. وكان يجب أحياناً العمل على تعديل بنية الحوار نفسها، أي طبيعة السوق الرمزيّ واللغويّ ، واختيار مَ ن يقوم بمحاورة مَن.

إنّ كلّ مَن أجرى محاورة سوسيولوجيّة أو تحقيقاً يدرك كم هو من الصعب حصر الانتباه باستمرار بما ينقال (لا عبر الكلمات وحدها وإنّما في مجمل المحاورة مأخوذة كمشهد كليّ)، واستباق الأسئلة التي يمكن أن تندرج بصورة طبيعيّة في مجرى المحاورة وفي الأوان ذاته باتّباع «خطّ» نظريّ معيّ ن. وبالتالي فلا أحد في منجى من أثر الأسئلة الساذجة أو الساهية ببساطة، ومن أثر الأجوبة المتسرّعة أو المزيّفة التي يكون «المحقّق» قد أثارها بسؤاله نفسه، ونتائجها

على بقيّة الحوار. أجوبة يكون هو نفسه قد أنتجها في فم المحاوَر بصورة من الصور.

لقد طلب بورديو من العاملين معه إجراء حوارات وتحقيقات مع أشخاص يعرفونهم هم أنفسهم من قبل. فالعمّال العرب أو أبناؤهم مثلاً قام بمحاورتهم باحثون اجتماعيّون مغاربيّون يعيشون في حيّهم السكنيّ نفسه، وتربطهم بهم أحياناً علاقة جيرة تمتدّ على سنوات عديدة. وكان لهذا الاختيار أثران إيجابيّان. فعندما يكون المستجوِب على قرب اجتماعيّ من المستجوَب، فهو يهبه، بادئ ذي بدء، وبفعل التبادل القائم بينهما من قبل، ضمانات في عدم رؤية بواعثه الذاتيّة وقد حُوّلت إلى أسباب موضوعيّة. ضمانات في عدم رؤية اختياراته المعيشة باعتبارها ثمرة قرارات حرّة أو مليّ ة بفعل شرطه نفسه، رؤيتها مختزلةً إلى تحديدات موضوعيّة ناجمة عن قريحة الباحث أو استنتاجاته. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فهناك أثر بالغ على المسار التقنيّ للحوار نفسه. إنّ وفاقاً مباشراً يقوم بين الاثنين، ويعرب عن نفسه في التلاؤم، العسير على التحقّ ق بصورة مقصودة، بين جميع العلامات اللفظيّة والاشارات غير اللفظيّة التي ترافق المحاورة، وهذا كلّ ه ممّا يساعد إلى درجة بعيدة في تأويل الحوار أثناء انعقاده ولدى الفروغ منه. وكان ويليام لابوف قد أفاد من قبل من هذه الاستراتيجيّة كثيراً: فحتّى يختزل بأكبر قدر ممكن آثار التفاوت والانزياح والتوجيه القسريّ في المحاورة لدى دراسته لانجليزيّة السود المحكيّ ة في هارلم، أرسل للتحقيق معهم باحثين سوداً.

لكنّ هذا لا يكفي لتحقيق الحوار المطلوب. بل يجب تحقيق انخراط المستجوَب نفسه في الحوار وإشعاره بأنّه هو نفسه مساهم فعّال في عمليّة البناء النظريّ التي ينطلق منها الحوار أو يصبّ فيها. ولن يتوصّل المستجوِب إلى نيل مساهمة المستجوَ ب القصوى من دون معرفة عميقة، هي في بعض الأحيان ثمرة سنين طويلة من البحث والمعاشرة، بمجمل وضعيّته. وغالباً ما يعتمد هذا على معرفة متبادلة تحقّقت بين الطرفين في حوارات مسبقة عديدة. فالحوار الناجح هو واحد، تكلّ ل بالنجاح، من سلسلة حوارات لم تجد ولن تجد سبيلها الى النور. هذا كلّ ه ممّا يبعدنا عن العفويّة المفتعلة للحوارات الفوريّة التي يخامر القائمين بها الانطباع بأنّهم حالفهم النجاح منذ أوّل «ضربة».

إنّ الباحث السوسيولوجيّ مطالب هنا بأن يحقّق وضعيّة تواصليّ ة بلا عوائق، وضعيّة متحرّرة من الضغوط الممارسة على التبادلات اللغويّة اليوميّ ة، وضعيّة تتيح للمستجوَب أن يعبّ ر فيها عن عسره وافتقاداته ونقصه ومطالبه، أي كلّ ما يشجّع على انبثاق خطاب استثنائيّ كان يمكن أن لا ينبثق مع أنّ ه كان هنا، في انتظار أن تتحقّق شروط انعقاده.

بعد هذا يأتي تسجيل الحوار أو تحريره خطيّاً. وهنا يتمسّك بورديو بنوع من الحرْفيّ ة، لا يكتفي فيها بعدم حذف التكرار والعبارات المترددّة والأخطاء النحويّة واللغويّ ة، بل يحرص هو ومساعدوه حتّى على تدوين الانفعال أو التعبير الايمائيّ الذي رافق هذه العبارة أو تلك. وهذا أيضاً لا يُ قام به من أجل مسرحة الحوار أو شحنة بدرجة عالية من المأساويّ ة، بل لتوفير شروط أعلى مقروئيّ ة ممكنة للحوار أو التحقيق السوسيولوجيّ مفهوماً كوضعية تواصلٍ أصيل.

استقالة الدولة:

في دراسة ضمّ ها الكتاب، مخصّ صة لـ«استقالة الدولة»، يلفت بورديو النظر إلى أنّ إرادة حميدة تدفع أحياناً إلى البحث عن تفسير الظواهر الخاضعة للمعاينة في أماكن لا يقوم فيها هذا التفسير حقّاً. فمن المؤكّد في نظره أنّ حقيقة ما يحدث في ما يُدعى بـ«الحارات الساخنة» أو «الصعبة» لا يقوم في هذه الأماكن المنسيّة التي تصعد بين الفينة والفينة إلى صدارة الأحداث وتحتلّ الصفحات الأولى من الجرائد. إنّ الموضوع الحقيقيّ للبحث، الذي ينبغي بناؤه

بالتحرّك في الاتّجاه المضادّ للمظاهر، إنّما يقوم في نظر بورديو في البناء الاجتماعيّ نفسه، وبتحديد أكثر في البناء السياسيّ للواقع، واقع يفرض نفسه عبر الأحداث والتمثّلات الصحفيّة والبيروقراطيّة والسياسيّة التي تساهم في إنتاج آثار أو انعكاسات فعلية، في العالَم السياسيّ أوّلاً ، إذْ تتحكّم بطبيعة النقاشات، وفي العالَم العلميّ من ثمّ.

إنّ التمثّلات الجماعية تشكل جزءاً لا يتجزأ من الواقع الاجتماعيّ الذي يجب فهمه، وهي مسؤولة عنه إلى حدّ بعيد. فالرؤية النيو – ليبراليّة في فرنسا مثلاً هي التي ألهمت سياسة العقد السبعينيّ في مجالي التمويل العموميّ وسياسة الإسكان. وهي التي تمخّضت عن التقسيم الاجتماعيّ الذي يجد في الغالب صورته المشخّصة، كما في حارة سان – فلورنتان مثلاً ، عبر شارع صغير يفصل بين سكّان القيلاّت الصغيرة وجمهور المجمّعات السكنيّة الواسعة. لكن عندما تدفع أحداث الشغب، كهذه التي تفجّرت قبل سنوات في حارة «ڤو – أو – ڤلان» في ليون أو جريمة القتل التي وقعت سان–فلورنتان، تدفع بهاتين الحارتين أو مثيلاتهما إلى واجهة الصحف والاعلام السمعيّ – المرئيّ ، فإنّ قليلين يتذكّرون سياسة «البيوت متهاودة الايجار» (HLM) وعمل لجان رايمون بار ونورا – إيڤينو، وجميع المناقشات التي شغلت حكومة جيسكار ديستان ووزيره للاسكان جاك بارو. إنّ البيروقراطيّات، يقول بورديو، لَضعيفة الذاكرة، والكثير من هذه القرارات التي تظلّ ، في مردودها الاجتماعيّ المستمرّ ، من أخطر ما عرفت فرنسا بعد الحرب، قد سقط في مجاهل النسيان.

يُكثر الصحفيّون الفرنسيّون والمتفلسفون بين الصحفيّين الكلام عن «الحجاب الاسلاميّ» وعن الأحداث الجارية في «الحارات الساخنة»، لكنّهم قلّما يتساءلون عن دورهم ودور الدولة في صناعة هذه الأحداث. ثمّة جدال بيزنطيّ واسع عن تعارض الليبراليّة والدولتيّة (تحكّم الدولة بالأجهزة والخطط والمشاريع)، لكنّ هذا الجدال لا يصمد في اعتقاد بورديو أمام معاينة فعليّة للواقع. فالجميع يعرفون دور الدولة الحاسم في تسيير سوق الأملاك غير المنقولة، خصوصاً عبر الاشراف على سوق العقارات وأشكال المساعدة المقدّمة أو غير المقدّمة لشراء المباني واستئجارها. أي بالتالي، دور الدولة الحاسم في التوزيع الاجتماعيّ للفضاء، وبتشخيص أكثر توزيع مختلف الفئات الاجتماعيّة على الفضاء. فضاء تمارس كذلك سيطرتها عليه بتحكّمها بسوق العمل من جهة، وبما يدعوه بورديو بالسوق المدرسيّ أو سوق التعليم (سنعود إليه في فقرة قادمة) من جهة أخرى. وإنّ تراجع الدولة، استقالتها، وتضاؤل المساعدة العموميّة للبناء والاعمار، هذا التضاؤل الذي بدأ يتأكّد في السبعينات، هذا كلّه يظلّ هو المسؤول عمّا نلاحظ اليوم من تكاثر لمواضع النفي والتهميش والعزل هذه التي ترى فيها، تحت ضغط البطالة والأزمة الاقتصاديّة، إلى أفقر شرائح السكّان وهي تتكدّس بعضاً فوق بعض.

هكذا يظلّ من المتعذّر في نظر بورديو أن نفهم حقيقة الأوضاع في مجال الإسكان ما لم نأخذ بعين الاعتبار التحوّل الجماعيّ للرؤية النيو – ليبراليّة التي بدأت في العقد السبعينيّ واكتملت في الثمانينات مع انخراط الاشتراكيّين في هذه الرؤية.

لا يكفي، للتعبير عن هذا التحوّل، الكلام عن «موت روح انتفاضة ٦٨»، وما إليه من المقولات النظرية أو الرثائيّة. بل هو، أي التحوّل إلى الأسوأ، يترافق وانهيار فكرة الخدمات العموميّة بالذات، انهيار ساهم فيه منظّرون ودعاويّون جعلوا من الليبرالية الاقتصادية الشرط الضروريّ والكافي للحريّة السياسيّة. من هذا المنطلق راحوا يساوون بين تدخّل الدولة والتوتاليتاريّة، حتى قادوا الدولة إلى استقالتها. وبخلطهم بين التجربة السوفياتية المخصوصة وكلّ فكرة إشتراكية راحوا يلوّحون بأنّ كلّ نضال ضدّ انعدام التكافؤ أو اللاّمساواة لا يمكن أن يتمّ إلاّ على حساب الحريّة. فصار كلّ نضال

ضدّ اللاّ مساواة يبدو كمثل دعوة إلى إعادة اعتناق التجربة السوفياتية. وبالخلط بين النجوع الانتاجيّ والحداثة والمشروع الخاصّ ، وكذلك بالخلط بين السلفية وانعدام النجاعة والخدمات العامّ ة، صير إلى إحلال الزبون محلّ المستخدَم أو المواطن، وإلى المطابقة بين التحديث وإلغاء المشاريع العامّة وتذويبها في القطاع الخاصّ والاستغناء عن العاملين في القطاعات العامّ ة، المسؤولين المزعومين عن انعدام النجوع وجميع أشكال ركود الانتاج.

لم تتمّ الأمور اعتباطاً في نظر بورديو، لا ولم تتمخّض عنها مصادفة «تاريخيّة». بل لقد أُضفيَت عليها صفة الضرورة، وإنّ مآلها ليكشف للمراقب الدقيق عن توزيع للمهامّ وتضافر للمبادرات والمسؤوليّات. فجميع هذه «الكليشيّات» عن المشاريع الخاصّة كأفق وحيد للممكن وعن لا تدخّل الدولة كحلّ أوحد، التي انتهت إلى فرض نفسها على الواقع وإلى التحوّل إلى فلسفة عمل ومنهاج إدارة، إنّما صير إلى تهيئتها في مجالات لقاء وحوار (مجلاّ ت، منتديات، برامج سمعيّة – بصريّ ة، ملتقيات ومؤتمرات) جمعت «مفكّرين» مغرّرين بشهوة السلطة أو الحكم وحكّاماً مفتقرين إلى «فكر». هكذا راحت الصحف والمجلاّت والمذياعات والتلفازات وما تزال تروّج مباشرةً لرؤية «نبلاء» الدولة الجدد، الذين ترجموا مصالحهم إلى اجتهادات، المتخرّجين جميعاً من «المعهد الوطنيّ للادارة» ENA والمنذورين لتدريس العلوم السياسيّة. «مثقّفو الصالونات» الجدد هؤلاء، الدائمو النهم للترقيات والعلاوات، هم الذين يشيعون المذهب الجديد للقطاع الخاصّ عماداً أوحد للعمل، ويزعمون إدارة المؤسسات العموميّة على شاكلة القطاع الخاصّ.

هم، كذلك، من يمتدحون مزايا مرونة العمل، عندما لا يشجّعون بصراحة على الاختزال التدريجيّ لعدد العاملين، وذلك باسم الانتاجيّة.

نفهم، على هذا الأساس، يقول بورديو، أن يشعر جميع الموظفين الصغار، وخصوصاً مَن يشغلون الوظائف التي تدعى بالاجتماعيّ ة، من قضاة ثانويّين ومساعفين اجتماعيّين ومربّين ومعلّ مين وأساتذة، إلخ.، نقول أن يشعروا بأنّهم منسيّ ون وفي الأوان ذاته مدفوعون إلى العمل، من دون امتلاك الوسائل اللازمة لذلك، على الحدّ من نتائج اللاّمساواة التي جعلت منها الدولة فلسفة عملية ومعياريّة إنتاجيّة. وإنّ هذه الخيبة لتجازف بأن تنسف من الأساس هذه الوظائف الاجتماعية التي تفترض من ممارسيها، كما هو معروف، قدراً من الايثار والنضاليّة.

إنّ هذه الفئة من العاملين الاجتماعيّ ين لا يمكنها أن تجهل المأساة الفعليّة لهذه الفئة من المواطنين التي تتعامل هي معها يوميّاً ، فئة الأحداث. أحداث يسكنهم الإحساس بأنّهم يكبّلهم العوز الماليّ والافتقار إلى وسائط النقل ويشدّهم إلى أماكن حاطّة («عفنة» كما يعبّرون هم أنفسهم) ومنذورة للتلوّث بجميع معاني الكلمة. إحساس يثقل عليهم كلعنة، ندب أو رضّ ة، ويمنع عليهم النفاذ إلى أماكن العمل والتسلية والاستهلاك، إلخ. إحساس ينذرهم، أكثر من ذلك، لأن يعيشوا تجربة الفشل المتكرّ ر، في المدرسة أوّلاً ، وفي سوق العمل بعد ذلك. وهذا الفشل يحرمهم من كلّ استشراف إيجابيّ للمستقبل. هي، جميعاً ، بعض من علامات تجربة دون – البروليتاريّ أو البروليتاريّ المتدنيّ هذا، الذي يدفعه عدم تمكنّه من التحكّم بالحاضر بأيّة صورة من الصور إلى الاستقالة أمام الآتي.

هذه الإشكالات تتفاقم بصورة مأساويّة بالنسبة للعوائل المهاجرة المغاربيّة. جانب من مصادر هذه الاشكالات نابع من الفارق الأساسيّ بين هذه الأسَر وبقيّة الأسر المهاجرة. إنّ ارتفاع نسبة الانجاب في هذه العوائل (نسبة تقلّ بقدرما يرتفع مستواها الثقافيّ والاقتصاديّ) لا يتلاءم بسهولة والمشروع التربويّ الذي يفرضه محيطها الاجتماعيّ. ثمّ إنّ الهوّة تظلّ شاسعة في أسلوب العيش والتطلّعات ورؤية العالم بين آباء قليلي التعلّم إن لم يكونوا غير متعلّ مين، وأبناء تلقّوا في الصميم نتائج «إقامة» طويلة الأمد في النظام التربويّ الفرنسيّ. نتائج متناقضة إلى أبعد الحدود. فمع كلّ

شيء، تشكّل المدرسة لأبناء المهاجرين هؤلاء محلاً لاكتشاف الانتماء الكامل، من وجهة النظر القانونيّة، إلى المجتمع الفرنسيّ وإلى ثقافة ديموقراطيّة يفترض بها أن تتمخّض عن مبادئ كونيّة، كرفض التمييز العنصريّ مثلاً. إلاّ أنّ هذا المعطى يجيء ليحدّ منه، أو يلغيه، ما يتعرّضون له على مستوى الواقع من تهميش واستبعاد. والآباء عاجزون عن أن يردأوا لدى أبنائهم هذا الاحساس بكونهم «زائدين عن العدد»، «مرفوضين». مثلما هم عاجزون مادياً عن إشباع حاجاتهم الاستهلاكيّة والترويحيّة التي يمتدحها حولهم نظام دعائيّ كامل يبدأ بغزو علبة البريد كلّ صباح ولا ينتهي بالشاشة الفضيّة. ومن جديد، تمارس سياسة الإسكان أثرها في تخليع البنيات القديمة: فإيواء الأسر المهاجرة بمقتضى ما يتوفّر من البيوت متهاودة الايجار يمنع من التجمّع بحسب أواصر القرابة كما في مدن الصفيح.

كانت الدولة تقدّم مساعدات للبناء أبدلتها منذ سنوات بمساعدات مالية هيّنة للأشخاص («الحدّ الأدنى من العائد»، الذي يمثّل في الواقع ما هو أدنى منه بكثير). وبذا نعود بنا في نظر بورديو إلى عهود الاحسان الدينيّ، عبر تضامنيّة كاذبة تحوّل الأفراد من مواطنين منتجين إلى مَعولين «مستبعَدين» كما تدعوهم الدولة ووسائل الاعلام عندما يعاودون احتلال صدارة المشهد السياسيّ والاجتماعيّ عبرَ هذا الحدث الساخن أو ذاك، عمليّة الشغب هذه أو تلك.

مستبعَدو الداخل:

في دراسة أخرى من الكتاب نفسه، اشترك في كتابتها پيير بورديو وپاتريك شامپاني، يتوقّف المؤلّفان عند وضعيّة طلبة المدارس في فرنسا. كان الطلبة قد أقاموا في العام ١٩٩٠ تظاهرات متكرّرة، للمطالبة خصوصاً بزيادة عدد المعلّمين. هذه التظاهرات يمكن في نظر المؤلّفَين أن تدفع إلى تكوين صورة متجانسة، وبالتالي خاطئة، عن المدرسة الفرنسيّة. والحال، فلا شيء متجانس هنا، وليس بالممكن أبداً الكلام عن «مدرسة» واحدة أو عن «المدرسة» وكفى. بل يجب معرفة الفضاء الاجتماعيّ والطبقيّ والثقافيّ الذي تندرج فيه هذه المدرسة أو تلك، فلا شيء أكثر تأثيراً وأهميّة في هذه الحالة من «السياق» العامّ.

يمكن في نظرهما الكلام، مع شيء من التخطيطيّة والإجمال، عن عالمين دراسيّين أو واقعين تعليميّين متقابلين «تقابل الليل والنهار» كما يعبّران. فهناك، من جهة، المدارس التي بُنيت كيفما اتفّق وعلى عجل في الضواحي الفقيرة والمحرومة ثقافيّاً، لاستقبال جمهور من الطلبة متزايد. ولا شيء يجمع هذه المدارس، عموماً، بأنموذج المدرسة كما كان قائماً في فرنسا حتّى الخمسينات. وهناك، من جهة ثانية، المدارس الخاضعة لحماية ورعاية متزايدتين، والمنذورة لاستقبال أبناء الأسر المرموقة بخاصّة (هذا مع أنّنا نتحرّك هنا في فضاء عموميّ، بعيداً عن مدارس التعليم الخصوصيّ). هؤلاء، ما يزال متاحاً لهم متابعة حياة دراسية غير شديدة الاختلاف عن هذه التي حظي بها جيل آبائهم وكذلك جيل أجدادهم.

وعليه، فحتّى إذا كان ممكناً أن يفجّر ما يُدعى بـ«عُسر المدارس» تظاهرات واسعة تجمع تحت نفس المطالب جموعاً غفيرة من الطلبة وآباء الطلبة ممّن يتكبّدون جميعاً العسر ذاته، فإنّ هذا العسر يظلّ يكتسي أشكالاً متعدّدة ويشهد درجات متباينة، وهو لا يشمل الجميع بالشكل ذاته ولا بالقدر ذاته. فالمصاعب وظواهر القلق التي يعيشها طلبة مدارس «النبالة» الباريسيّة تختلف بصورة جذرية عن هذه التي يتكبّدها طلبة مدارس التأهيل التقنيّ في الضواحي والبَلْدات الفقيرة.

حتّى نهاية العقد الخمسينيّ، كانت مؤسسات التعليم المتوسّطة والثانوية تشهد استقراراً كبيراً، مفارقاً ومجحفاً

ولا شكّ ، ولكنّه يتمتّع بفضيلة الوضوح الكبير: فمنذ بلوغ الطلبة عتبة المدرسة المتوسّطة، يُصار الى استبعاد أبناء الأسر المحرومة ثقافياً واقتصادياً. هذا الانتقاء الممارس على أسس اجتماعية وطبقية كان مقبولاً إلى حدّ واسع من قبل ضحاياه من الطلبة، ما دام لا يقوم إلاّ على مزايا «المختارين» أو «المحظيّين» ومواهبهم. ويقول المؤلّفان إنّه لم يكن عسيراً على الطلبة من أبناء الفقراء الذين لم تكن المدرسة راغبة فيهم أن يقنعوا أنفسهم بأنّهم ليسوا في المدرسة براغبين. كان هذا الحدّ الفاصل المقام بين الابتدائية والمتوسّطة يدعم حدوداً هي الأخرى مرسومة بوضوح بين الفئات الاجتماعيّة.

فهناك من كانوا «مخلوقين» للمدرسة، وهناك من لم يكونوا «مجبولين» لها ولما تتيحه بعد ذلك من وظائف غير يدويّة ومواقع قياديّة في مجالَي المناصب والأعمال. أي أنّ نوعاً من القدريّة ربّما كان يميّز الفئات المتواضعة سرعان ما يترجم «الانتقاء الاجتماعيّ» إلى ضرب من «الانتقاء الطبيعيّ».

بين التحوّلات التي طرأت على النظام التربويّ منذ الخمسينات، يتمثّل التحوّل الأخطر والاكثر اكتنازاً بالنتائج في انفتاح مشهد التعليم لفئات اجتماعيّة كانت محرومة منه. حدث هذا مع تمديد سنّ التعليم الالزاميّ حتى سنّ السادسة عشرة، وتعميم الدخول في المدارس المتوسّطة والاعداديّة.

واحدة من نتائج هذا السياق، الذي استعجل الكثيرون في نظر المؤلّفَين فتحدّثوا بصدده عن «مقرطة التعليم»، تتمثّل في الاكتشاف التدريجيّ الذي يقوم به المفيدون الجدد من التعليم الدراسيّ للواقع المحافِظ للمدرسة «الليبراليّة». فبعد فترة الوهم والانتشاء والغبطة، يكتشف هؤلاء، أوّلاً ، أنّه لا يكفي الوصول الى المرحلة الاعداديّة للنجاح فيها، وثانياً ، أنّه لا يكفي نيل البكالوريا لبلوغ المواقع الاجتماعية والوظيفية التي كانت البكالوريا تمكّن من اختراقها. وإذا بالمدرسة التي فتحت أبوابها واسعة للجميع تمارس الاستبعاد الخفيّ لأبناء بعض الفئات (هي نفسها دائماً)، وذلك بالاستناد الى معايير التقسيم السابقة نفسها، التي بقيت ثابتة وإنْ صير إلى تنويع مسمّياتها وأضفيَت عليها رطانة سوسيولوجيّة وتربويّة جديدة. فبدل الكلام عن «موهوبين» و«غير موهوبين»، «أذكياء» و«غير أذكياء»، يُصار إلى الكلام عن «عوائق اجتماعيّة» و«موانع ثقافية» و«نواقص تربويّة» وما إليه. صارت المسؤولية الجماعية عن الفشل تحلّ محلّ المسؤولية الفرديّة. وبنوع من «التفجّع» على الضحيّة، يتكلّم البعض عن الواقع الثقافيّ لبعض الأسَر، غير المجنَّد لازدهار الأبناء، والبعض الآخر عن تقصير الأساتذة، الذين طالما عدّهم الآباء مسؤولين عن فشل أبنائهم الدراسيّ. وعموماً ، يُصار إلى الكلام عن نظام تربويّ فاشل يتعيّن تجديد طرائق العمل فيه، وهذا كلّه ممّا يعفي من النظر إلى استمرار طرائق التقسيم الاجتماعيّ والانتقاء الطبقيّ التي ما تزال عاملة في المدرسة.

ينبغي في نظر المؤلفين العمل على إثبات أنّ التغيّر الذي طرأ على بنية المدارس مع دخول «الزبائن» الجدد لم يصحبه تغيير في بنيات التوزيع المتفاوت للمنافع المدرسية والمزايا الاجتماعية المرتبطة بها أو الناجمة عنها. لقد بقيت الهوّة واسعة بين الفئتين الكبرَيين في بداية هذا العرض، «نبالة المدن» و«المحرومين العتيدين». بل لقد تدعّمت هذه الهوّة مع هذه الزيادة الخطيرة المتمثّلة في أنّ سياق الاستبعاد، الذي كان يتموقع في بداية المتوسّطة، قد تم مطّه في الزمن وإرجاء لحظة انكشاف نتائجه الأليمة. فصارت المدرسة مأهولة بمستبعَدين «بالقوّة» في انتظار أن يكونوا كذلك «بالفعل».

إنّ من الواضح أنّه لا يمكن تعميم مزايا التعليم الديموقراطيّ بحيث تشمل أبناء جميع الفئات من دون دفع ثمن باهظ: رؤية الشهادات وهي تفقد من قيمتها يوماً بعد يوم، وذلك بقدر ما يكثر حاملوها، أي مع تزايد العرض. لكن من الواضح أيضاً أنّ «المسؤولين» عن انخفاض قيمة الشهادات، أي الوافدين الجدد، هم من يشكّلون الضحايا الأولى

لهذا الانخفاض. فأبناء الأسر المحرومة ثقافيّاً يجازفون إلى درجة بعيدة في عدم الظفر، بعد تضحيات عديدة، إلاّ بشهادة غير كبيرة القيمة في سوق عرض الشهادات وطلبها. وإذا ما فشل الواحد منهم في سياق تعليمه، فهو منذور لاستبعاد أكثر مرارة بكثير. استبعاد مرير، من حيث أنّه نال في الظاهر «فرصته» في التعلّم، ومن حيث أنّ المؤسسة التعليميّة هي المرشّحة أكثر فأكثر لتحديد الهويّة الاجتماعيّة. وهو مرير أيضاً من حيث أنّ الأماكن في سوق العمل مرصودة أكثر فأكثر لحاملي الشهادات المتزايدين عدداً يوماً بعد يوم. هذا ممّا يفسّر أنّ الفشل الدراسيّ صار يُعاش ككارثة حتّى في الأوساط التي لم يكن حرمانها المتوارث ليدفعها إلى أن تمحض التعليم كبير قيمة. وعلى هذا النحو صارت المدرسة تبدو للطلبة مثلما لذويهم كمثل خدعة ومنبع لخيبة اجتماعية كبيرة: أفق يتراجع بقدر ما يتقدّمون نحوه.

أكثر من هذا، فإنّ تعدّد الاختيارات والتوجيهات التعليميّة صار، كما يكشف عنه المؤلّفان، يساعد في خلق استبعاد «رقيق»، بطيء وغير محسوس. ممّا يبقي على السياق التعليميّ في مكانه، بثمن إطالة عمر الوهم لدى ضحاياه ومستهدَفيه. قلنا إنّ الاستبعاد (إستبعاد الطلبة غير المؤهلين للمواصلة) كان يتمّ في لحظة مبكّرة. أمّا اليوم، فهو يتحقّق مبكّراً أيضاً، لكنّ لحظة انكشاف الوهم وحصاد الثمار المريرة تأتي متأخّرة. فمنذ نهاية المتوسّطة، صار الطلبة يوجَّهون إلى اختيار أحد فروع التعليم، العلميّ أو الأدبيّ أو التقنيّ (هذا ما يفسّر وجود طلبة صغيري السنّ أو يافعين بين المتظاهرين). لكنّ نتائج هذه الاختيارات تظهر في نهاية السياق. ممّا يعني أنّ هؤلاء الطلبة كان محكوماً عليهم بالفشل مع وقف التنفيذ. الذي حصل لهم هو تأجيل الحساب النهائيّ، وإبعاد لحظة تجلّي الحقيقة، اللحظة التي يتضح لهم فيها أنّ الزمن الذي أمضوه في المدرسة كان زمناً ميتاً أو مهدوراً.

لا شكّ أنّه ليس من العسير تقدير الآثار النفسيّة والعاطفيّة التي يعود بها هذا المعيش الذي يبدأ بانعدام اليقين حول المستقبل وينتهي بانكشاف الوهم الأكثر مرارة. إنّه يربّي، في نظر المؤلفين، نوعاً من «سوء الطويّة»، بالمعنى النفسيّ للتعبير، سوء طويّة بإزاء النفس وبإزاء الآخر، وخصوصاً بإزاء الواقع المؤسّساتيّ نفسه. فهؤلاء الطلبة، الفاشلون احتمالاً أو «بالقوة»، إنّما يتمتّعون بجميع «الحظوظ» لحمل صورة عن الذات مجرّحة باستمرار، ومرضوضة. تشويهات نجدها حتّى في أعلى مستويات النجاح، الذي يظلّ متفاوتاً، بين طلبة المدارس التأهيليّة الصغيرة بالقياس إلى مَن نالوا فرصة تعليم أكثر «علوّاً».

لكنّ كبت الحقيقة الموضوعيّة، حقيقة الموقع الفعليّ الذي يشغله الطالب في قلب النظام التربويّ (ورديفه المتمّم له: النظام الاجتماعيّ) لا تنجح باكتمال على الدوام. فلا يتمتّع التمويه المؤسّسيّ بكبير وزنٍ أمام المصاعب الناجمة من الكذب على الذات. ولذا ترى إلى هؤلاء المستبعَدين مع وقف التنفيذ وهم يزاوجون في داخلهم بين أعلى أشكال وضوح البصيرة إزاء واقع المدرسة من جهة، والاختيار شبه الحرّ في قبول الوهم والمساهمة في اللعبة من جهة ثانية. ولعلّهم يفعلون ذلك ليتمتّعوا لمزيد من الوقت بزمن الحريّة والمجانية اللذين توفّرهما المؤسّسة الدراسيّة. هو نوع من ازدواج الوعي أو ما يدعوه علماء النفس بالإكراه المزدوج، يخضع فيه المرء لوازعَين متعادلين في القوّة ومتضادّين.

لكنّ هذه المراوحة بين إكراهين يظلّ لها ثمنها الذي يذكّر به المؤلّفان بقوّة. إنّه العنف الذي يشهده الواقع الدراسيّ والتظاهرات الصاخبة التي «تنغّم» إيقاع الحياة الدراسيّة في فرنسا منذ ثلاثة عقود.

إنّ المدرسة تمارس الاستبعاد اليوم كما بالأمس. الفارق هو أنّها باتت تحتفظ في داخلها بمستبعَديها ردحاً من الزمن. تمارس استبعادهم في جميع المراحل، وتمسك بهم عبر الوهم. فيروح «مستبعَدو الداخل» هؤلاء يتماوجون بين

الانسحار بالوهم والقبول بالعقاب، بين الخضوع القلِق والتمرّد الكسير. يعرفون أنّ التقسيمات ما تزال قائمة في ما وراء تطابق مفردات «المدرسة» و«التلميذ» و«المعلّم». ويعرفون هبوط قيمة الشهادات المتزايد وانعدام الجدوى في شهادة بكالوريا يحصلون عليها بدون امتياز. فيواصلون سياق تعليمٍ يعلمون أنّه مجرّد في أحيان كثيرة من كلّ مستقبل.

الرؤية الاعلاميّة:

في دراسة حملت عنوان «الرؤية الاعلاميّة»، ينطلق پاتريك شامپاني من بديهيّة مفادها أنّ ظواهر العسر والأحداث الاجتماعيّة لا تتمتّع بوجود مرئيّ إلاّ عندما تتكلّم عنها وسائل الاعلام، أي عندما يتكلّم عنها الصحفيّون، كما هي مبدئيّاً. هذا يدفع في نظره إلى ملاحظة أساسيّة أولى: أنّ ظواهر العسر لا تنحصر في هذه التي يتحدّث عنها الاعلام. وإلى ملاحظة ثانية: أنّ ظواهر العسر التي تجد طريقها إلى ما يُدعى بـ«التغطية» الصحفية والاعلاميّة لا تنحصر غالباً في الصورة التي تقدّمها عنها وسائل الاعلام. يحدث أن يتوهّم الاعلاميّون (جميع العاملين في وسائل الاعلام المكتوبة والمسموعة والمرئيّة من صحفيّين ومعلّقين على الأحداث ومديري نشرات الأنباء ومصوّرين وجميع مَن يساهمون من بعيد أو قريب في «صناعة الخبر»)، نقول يحدث أن يتوهّموا المساهمة في التعريف بظواهر العسر هذه وإدخالها إلى ما يُدعى بـ«الميدان العامّ». لكن من الساذج أن نصدّق هذا الزعم على علاّته. لا سيّما وأنّ علاته ومظاهر الشوَه والزيغان فيه كثيرة.

لا تتمتّع جميع الأحداث والكوارث وما دعوناه بظواهر العُسر بالقدرة نفسها على «المرور» عبر الاعلام ولا تسمح جميعاً (وفي أحيان كثيرة لا يُسمَح لها بذلك) بتغطيتها بالدرجة نفسها من «المقروئيّة» أو «الشفافيّة». هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فظواهر العسر التي تجد سبيلها الى التغطية تتعرّض بما لامفرّ منه إلى عدد من الشويهات والتزييغات ما إن تتعهّد بها وسائل الاعلام. ذلك أنّ هذه الأخيرة لا تكتفي بتسجيلها، بل لا بدّ أن تمارس عليها عملاً من البناء أو الانشاء يعتمد في درجته ومداه على المصالح الخاصّة بهذا القطاع من الأنشطة (قطّاع الاعلام الذي تظلّ له مصالحه الخاصّة واستراتيجيّاته التي يمليها عامل المنافسة التجاريّة بين مختلف قنواته) من جهة، وانخراط هذه القناة أو تلك في هذه الأيديولوجيّة المهيمنة أو تلك من جهة أخرى.

ويرى الباحث أنّ المقارنة بين ظواهر العسر التي تجد سبيلها إلى التغطية الاعلامية وهذه التي يتغمّدها السكوت تتيح الكلام عن ظواهر عسر أو إشكالات أو أحداث «خاصّة بالصحفيّين» أو مفصّلة على مقاس الاعلام. إنّها الأحداث التي يصاغ تمثّلها الجماهيريّ بحيث تثير فضول الصحفيّين وتمدّهم بالكلام أو بمناسبة للكلام. صحفيّون يساهمون بالنتيجة في صناعة الحدث أو إثارته بقدر ما يزعمون الاكتفاء بـ«تغطيته». من صفات هذه الأحداث المعسرة أنّها تقع «خارج المألوف»، هي مأساويّة، تثير الانفعال، وتظلّ مربحة تجاريّاً، أي متناسبة والتحديد الاجتماعيّ للحدث المعتبر جديراً باحتلال الصفحة الأولى من الجرائد أو صدارة نشرات الأنباء.

إنّ الصحفيين والإعلاميّين، مهما كان اختلاف وتباين طرائقهم في العمل وقنوات إيصالهم لمنتجاتهم الاعلامية، معروف أنّهم يسمع بعضهم البعض، يقرأه ويتابعه. إنّ جردة يوميّة أو أسبوعيّة يقوم بها كلّ فريق عملٍ للمتوفّر من الأنباء تظلّ ضروريّة ليعرف الواحد ما يتحدّث عنه الآخرون، فيتمكن بالتالي من ملاحقة الركب وربّما من تجاوزه أو التميّز عنه. لكنّ التشابه في المعالجة يظلّ هو القاعدة الغالبة في هذا المضمار. هذا ما يكتشفه الباحث الذي يراجع،

لاحقاً و«على البارد»، التغطية الاعلامية التي حظيت بها حرب الخليج مثلاً أو حركة طلبة المدارس أو انتفاضات الحارات الفقيرة. تجد ولا شكّ بعض المعالجات الناجعة لهذه الأحداث. لكن تلاحظ في الأوان ذاته أنّها مرّت جميعاً غير ملموحة، بل لقد غرقت في سيل من التناولات الجاهزة شبه المُجمَع عليها في إعلام متشبّث بطريقته في «معالجة الحدث».

إنّ وسائل الاعلام تعاجل على الفور، والحدث ما يزال في البيضة أحياناً ، لتقدّ م عنه تمثّلاً اجتماعيّاً يروح يفرض نفسه رغم التكذيبات اللاحقة التي يقدّمها أحياناً سياق الحدث نفسه، نتائجه، أو النظرة الملقاة عليه بأناة. ذلك أنّ هذا التمثّ ل، مهما كان من بُ عده عن الواقع، لا يقوم في الغالب إلاّ بتدعيم تأويلات عفوية (أي جاهزة) وتقوية الأحكام المسبقة ومضاعفتها. يمكن في هذه الحالة أن تحدث جميع الالتواءات الممكنة: تحويل تظاهرة صغيرة إلى حدث كاسح، أو تهميش حدث جدير بالاعتبار واختزاله إلى فاصل عديم القيمة وغير ذي بال.

يطرح الباحث مثلاً انتفاضة طلبة المدارس في ١٩٩٠. كان الأمر يتعلّق في البداية بتظاهرة قام بها ثلاثة آلاف طالب خرجوا يطالبون بزيادة عدد الأساتذة. وبقدر ما راح التلفزيون يستولي على الظاهرة، بدأ الأمر يتحوّل إلى انتفاضة كبيرة مزعومة. للتلفاز هنا وزنه البالغ. وذلك أوّلاً بباعث من سهولة نفاذه إلى جميع الأوساط بالقياس إلى الصحافة المكتوبة والتحاليل المتعمّقة. وثانياً لقوّة الصورة وتأثيرها «الدراميّ» وتمتّ عها بمصداقية مزعومة بالمقارنة مع الخطاب (نعرف مع ذلك أنّ ثمة ريبورتاجات ملفّقة وصوراً «ممنتَجة»). ثمّ إنّ التلفاز يمدّ حتى الصحف المكتوبة بمادّة للكلام، فلا صحيفة تجرؤ على أن تهمل في الغد ظاهرة كان التلفزيون قد خصّها في العشيّة بدقائق أولى من نشرته. ويرى الباحث أنّ صانع الأنباء وصحفيّ الأحداث قد يندفع الواحد منهما بنيّة بريئة إلى تضخيم حدث معيّن. قد يفكّ ر هنا بالسوابق: فما الذي يمنع تظاهرات أحداث ١٩٩٠ من أن تكون نسخة مكرّرة قد تزيد على الأصل هولاً من تظاهرات ١٩٨٦ بل وحتى من انتفاضة ٦٨ الطلابيّة الشهيرة؟ الذي أثبتته الأحداث هو أنّ الأمر كان بعيداً عن أن يكون كذلك. وبقدر ما تزايدت التغطية، راح مسؤولو الحركة، من تلامذة المتوسّطة والثانويّ ة، يتخذّون وقفات (بوزات) النجوم والأبطال، يرفضون الكلام إلاّ أمام كاميرات التلفزيون، ويقلّدون خطاب النوّ اب، ولم يهدأوا حتى تناولوا طعام الغداء مع رئيس الوزراء وقدّموا له مطاليبهم باليد ووجهاً لوجه. ويحدث أن يختفي مثل هذا الحدث بمثل ما ظهر فيه من سرعة. ولقد صرّح صحافيّ إذاعيّ للباحث بأنّه لا يندر أن ينهض مسؤول عن التحرير بعد أيّام من تزايد الكلام عن الحدث ويقول: «ألا كفى. لقد سئمنا من الشبيبة. ثمّ ة أشياء أخرى جديرة بالكلام عنها». وبالفعل، فلا يندر أن تجود راهنية الأحداث بموضوعات وظواهر كانت قيد الانتظار. ستسارع صحيفة «لوموند» إلى تهدئة الجوّ (بصدد الحدث السابق الذي صار عتيقاً في ظرف أيام). وستعمد «ليبيراسيون» إلى التحليل والتأويل اللذين يُ نذران، بصورة مفارقة، بنفاد الحدث و«سقوطه» في التاريخ أو وقوعه تحت ذمّة التاريخ.

لكن أسلوب «التغطية» يظلّ يتفاوت بحسب الانتماء الاجتماعيّ للمجموعة «موضوع» الحدث. فالمجاميع المعدمة محرومة غالباً من الكلام، وتعدّ غير قادرة على صنع خطابها، فيتعيّ ن الكلام عنها بمعنيَ ي التعبير، التحدّث بصددها وباسمها. يستحضر الباحث مثلاً أحداث حارة «ڤول – أو – ڤلان» الهامشيّة في مدينة ليون الفرنسيّة. الغالبية العظمى من سكّانها هم من المهاجرين وأبناء المهاجرين المغاربيّين. كانت عمليّة تفتيش قامت بها الشرطة في نهاية أيلول/ سبتمبر ١٩٩٠ قد دفعت إلى انقلاب دراجة ناريّة ومصرع أحد راكبَ يها، شابّ إيطاليّ الأصل. فتمخّض الحدث عن احتجاج صاخب من قبل الشبيبة قاد إلى حرق عدد من السيّارات والمغازات ونهب محتوياتها التي كانت

بدون ذلك ستتفحّم بالضرورة وسط النيران. فغزت الصحف والشاشة الفضيّة على الفور صور العنف الصارخ، مشاهد استثنائيّة كما يطالب به منطق الصورة الاعلاميّة. الذي حدث، ولم ينتبه له أحد سوى الباحث ومجموعة من العاملين من أجل صحافة مغايرة، هو أنّ وكالة صحفيّة في المدينة نفسها كانت قد اقترحت قبل قيام الحدث نفسه بأيّام، وبكامل العفويّة، إجراء تحقيق موسّع عن ظروف العيش في هذه الحارة المصنّفة بين «الحارات الساخنة». ولم تتلق أذناً صاغية ولا طلباً لإجراء التحقيق، «فلا شيء يحدث في مثل هذه الحارة». وفي أيّام الحدث نفسه، وهذا ممّا يذهب في الاتجاه ذاته، تلقّت وكالة لأفلام «الڤيديو» في المدينة طلباً من إحدى القنوات التلفزيونيّة بإجراء تحقيق عن «مُحرقي السيّارات والجانحين في الحارة، ومقابلتهم ولو كانوا مقنّعي الوجوه». لكنّ محرّري الوكالة، وهم مغاربيّون، قاموا بحرف الطلب عن وجهته الأصليّة وقابلوا عاطلين عن العمل وعاملين اجتماعيّين للكلام عن المشاكل الحقيقيّة للحارة. لم يجد التحقيق سبيله إلى البثّ.

المحرومون، يقول الباحث، هم أقلّ الناس قدرة على السيطرة على التمثّل المعطى عنهم. فما بالك بالقدرة على وضع تمثّلهم الذاتيّ؟ كان مسؤول سياسيّ قد صرّح إبّان أحداث الحارة المذكورة، وكأنّه ينطق بلسان حال الاعلاميّين: «لا يمكن أن يأتي الواحد ويتكلّم على هواه، عن حالته المزاجيّة مثلاً. يجب أن يتعلّم الافصاح عن نفسه بوضوح». هو، مرّة أخرى، معيار الوضوح العقلانيّ المتخفّي على إرادة للهيمنة ونيّة في التطويع. وطوال أيّام التغطية المشهديّة للحدث، راح رجال الشرطة والاعلاميّون يقدّمون تأويلات بعضها يقارب الصواب وبعضها يجانبه («هفوات أفراد الشرطة»، «عطالة الشباب»، «الجنوح والاجرام»، «الشروط السكنيّة»، إلخ.)، لكن لا أحد فكّر بخطاب «أبطال» الحدث أنفسهم. كانوا متكلّماً عنهم أكثر منهم متكلّمين. وحتّى عندما يُعطى لهم الكلام، تراهم ينطقون بخطاب مستعار ويردّدون الخطاب الاعلاميّ المردّد بصددهم. ولقد لاحظ الباحث أنّ بعضهم راح يتحدّث عن نفسه بصيغة الغائب: «الشبيبة تريد صالات للاجتماع...» صعوبة الاضطلاع بضمير «نحن»! أضفْ أنّ الصحفيّين والاعلاميّين، شأنهم شأن رجال القضاء، كانوا يدّعون نقل ما يحدث بدون التعليق عليه. كأنّهم، هم أيضاً، بلا خطاب. حياد تمويهيّ.

طوال أسابيع، صارت الحارة «قِبلة» الصحافة وأجهزة الاعلام. كان يجب الكلام عنها بأيّ ثمن. تصوير ولو سيّارة محروقة واحدة. لمنافسة القنوات الأخرى، أو على الأقلّ «لتغطية الكلفة»، كلفة إرسال صحفيّين وكاميرات، كما عبّر رئيس تحرير إحدى القنوات يستنهض مراسليه. ثمّ عاد الصمت إلى هذه الناحية من العالم وغطّى من جديد على كلّ شيء.

نماذج للاقتلاع :

في ثنايا هذا الكتاب الضخم الذي تتوالى بين عناصره المكوِّنة الدراسات التحليليّة والمقابلات السوسيولوجيّة، نقف في الواقع على العديد من التجارب المخصوصة والعذابات الفرديّة والجماعيّة، مصائر متأرجحة بين يأس طاحن وأمل متواتر، بعضها فرنسيّ والآخر مهاجر أو سليل مهاجرين، متفرنس بالتجنّس أو لا. بين النماذج المهاجرة، نعرض هنا خمس تجارب دالّة قابل أصحابَها بورديو والمشاركون معه في وضع الكتاب. ولن يخفى على القارئ «نمطيّة» هذه التجارب، بالمعنى التحليليّ للمفردة، أي إمكان العثور في هذا المعيش الاقتلاعيّ على العديد ممّا يقارب هذه الحالات أو يشبهها. فما هي بتجارب معزولة، بل هي دالّة على إرث متقاسَم وأفق جماعيّ. وبتوزّعها على أجيال مختلفة

وقطاعات متباينة، فهي ترسم ما يشبه «مروحة» للتناولات الممكنة و«بانوراما» مصغّرة لهذا النمط من التجارب.

هناك أوّلاً عبّاس (جميع الأسماء، كما يؤكّد عليه الباحثون، مستعارة)، شيخ من أصل جزائريّ، عامل متقاعد. خطابه، وإنْ كان ينهل من الإرث الشائع، ينطوي على حكمة شخصيّة هي عصارة معاناته وتجاربه. لكنّ خطابه كلّه مخترَق بلعنة لا تهدأ يصبّها على ما يمكن دعوته، من وجهة نظره هو، بـ«خطيئته الأصليّة». «خطيئة أصليّة» متمثّلة في الخطوة الأولى التي قام بها نحو فرنسا، هذا العالَم الغريب عليه. يقول إنّ أباه، الشيخ الورع المتديّن، كان نهاه عن الرحيل. وأمام ضغط الفراغ والعطالة في قريته الأصليّة، واجهه هو بنيّته الملّحة في الرحيل للعمل في أوربا. لم يواجهه بها، بل بعث له وفداً من علية القوم لنيل موافقته. فناداه أبوه وقال له إنّه لا يبارك خطوته، ولا يلعنها، لكنّه يطلب منه شيئاً واحداً، ألاّ يرسل له مالاً سيكسبه هناك من نقود، «فهي حرام». «حرام»، لمجرّد أنّه سيغنمها في فرنسا.

ومع أنّ صاحبنا سيجد عملاً ويسيّر حياته بشكل معقول، فهو يشعر بفشل كليّ. فشل يأتي ليدعّم الاحساس به ما يراه من بؤس الآخرين، من جميع الأجيال المهاجرة، حوله. وهو لا يفتأ، ربّما تحت وطأة التقدّم في العمر، من ترديد كلمة أبيه تلك، عن «المال الحرام». ومع أنّ أباه لم ينطق بلعنة فهو يفهم الآن كلامه كلعنة. إدانة مبرمة لعقوق نهائيّ. «أنا نفسي لا أصدّق، يقول. كيف وصلنا إلى هذا الحدّ؟ هل نحن أنفسنا، كما كنّا في اليوم الأوّل لوصولنا هنا؟ كيف وقعت اللعنة؟ لم نرَها تصل. هبطت علينا عندما فات الأوان لمواجهتها. يجب القبول بها كما هي. يجب القبول بنا كما نحن. لا شيء لنقوم به. إلاّ أن نشكر اللّه، فهو وحده يعرف ما يفعل. وما نحن إلاّ دمية بين يديه...»

الأنموذج الثاني يتمثّل في حسين، عامل تونسيّ الأصل، ذو مهارات، في سكك الحديد. وعيه النقابيّ وإيمانه بأنّ «خيانة التضامن الاجتماعيّ إنّما هي خيانة للذات»، يدفعانه إلى القبول بالإشراف على تحسين الحياة في المجمّع السكنيّ الواسع الذي يتقاسم هو العيش فيه مع ما يقرب من مائة أسرة مهاجرة وبعض الفرنسيّين. ما يؤكّد عليه هو ممّا يجب القبول به بصراحة والتحديق به بإمعان، لأنّه يكشف عن الوجه الآخر لمأساة المهاجر، مأساة يفاقمها هو، أي المهاجر، بنفسه أغلب الأحايين. كانت مقترحاته، هو واللجنة التي تشكّلت لإعادة إحياء المجمّع السكنيّ، بسيطة: العناية بشروط الصحّة والنظافة العامّتين، الإقلال من الصخب، وأن يعود السكّان بعضهم البعض ويساعده عند الشدّة. وإذا كانت مبادرات طيّبة قد حصلت على مستوى التضامن والزيارات المتبادلة، فإنّ الكثير ما يزال يتعيّن القيام به على صعيد هدوء الحارة حيث يقوم التجمّع السكنيّ، ونظافتها. يرمون، كما يقول هو، بكيس قاذوراتهم من الطابق الثامن مع أنّ هناك مكاناً مخصّصاً لتكديسها. يقضي الصغار حاجتهم في كلّ مكان. وهناك أبواق السيّارات التي تلعلع في الثانية صباحاً: «إنّه تجمّع لباعة مخدّرات صغار». جرّب معهم حسين، عبثاً حتّى الآن كما يقول، جميع الوسائل المعنوية والحيل الأخلاقيّة والاقناعيّة. قال لهم: «عرفتكم صغاراً ورأيتكم تولدون. فما بالكم تلطّخون بالوحل كلّ شيء وتكسرون كلّ ما ترون؟». هكذا يتأرجح خطابه بين الإحساس بضرورة مواصلة العمل من أجل مستوى معيشيّ جماعيّ أفضل وبين الشعور بعبث المحاولة لإنقاذ منفى يتداعى على ساكنيه.

الأنموذج الثالث يتمثّل في عائشة، شابّة مغربيّة الأصل متخرّجة حديثاً في الدراسات الاجتماعيّة (سوسيولوجيا). وهذا ممّا أمكنها من أن تقدّم في الحوار المُجرى معها وصفاً دقيقاً ومفصّلاً لمعاناتها ونظرة تحليليّة تلقيها على هذه المعاناة. هي الابنة البكر لأسرتها. ولذا مثّلت الابنة الأنموذجيّة لأبيها بخاصّة، وسنده الرمزيّ والثقافيّ الأساسيّ. فكما يحدث في أغلب الأسر المهاجرة، وجد أبواها فيها وفي إخوتها فرصة لتحقيق مثالهما الوظيفيّ والتعويض عن حرمانهما الثقافيّ. وما إن صارت تفقه القراءة والكتابة بالفرنسيّة، حتى بدأت تضطلع بدورها (دور «كلاسيكيّ») لدى الأسر

المهاجرة، والباحثة التي أجرت معها الحوار، فرانسين مويل – درايفوس، تدعو عائشة بـ« الرسولة ») دورها كوسيط ومترجم بين العائلة والعالَـم المحيط، الفرنسيّ منه والمهجريّ. إنّها تدوّن تصريحات الأب للضرائب في كلّ عام، وتردّ على استمارات المؤسّسة والدولة، وتحرّر باسمه بطاقات تهنئة للأقارب والأصدقاء والمعارف في العيدَين، الفطر والأضحى (يسمّونه « الكبير ») . تتحدّث عن أمسيات عديدة تمضيها في تدبيج البطاقات، عشرات البطاقات هي مناسبة ليعبّر الأب عن وجوده. وجوده عبرَ ابنته. حتّى عندما فكّرت العائلة بالرجوع إلى المغرب، أرسلت عائشة إلى البلاد في ما يشبه رحلة استطلاعيّة. فعادت وأقنعت الجميع بأنّ لحظة العودة، وظيفيّاً ومهنيّاً على الأخصّ ، لم تحن بعد. هذا يعني، مع تقدّم العمر وضرورة الاستقرار في مكانٍ ما، أنّها لن تحين.

هو إذْنْ تفاهم متبادل يقوم عليه توازن جميع الأطراف. لكنْ تأتي، إن عاجلاً أو آجلاً ، اللحظة المؤذنة بانفصامه بدرجة من الحدّة تقلّ أو تزيد. لحظة خروج الابن أو الابنة إلى العالَم ومواجهة المصير الفرديّ . لحظة حبلى بالتعقيد، تزدوج في حالة عائشة (وليست الوحيدة في ذلك) بتعقّد إضافيّ : فهي تنوي الاستقرار مع شابّ فرنسيّ تحبّه ويحبّها. العائلة تتلقّى هذا كطعنة في الصميم. خصوصاً الأب : « لقد توقّعتُ هذا من الجميع، إلاّ منكِ أنتِ »، يقول مخاطباً ابنته في مزيج من الادانة والانجراح.

وهناك أيضاً مثال الاحتكاك المُخفق أو المتعذّر مع الأسَر الفرنسيّة في حالة الحارات المختلطة السكّان. هي ذي أسرة بن ميلود تواجه مدام مونييه في حرب ما فتئ أوراها يضطرم منذ سنوات. وإذ تحدّق مع الباحث (عبد الملك الصيّاد، الذي قام بمحاورة كلّ من الجهتين على حدة) بأسباب الصراع تجدها واهية. فما هي إلاّ تعلاّت لتأجيج صراع يجد في نفسه وفي عوامل أخرى تتخطّاه ما يغذّيه، فيرتفع كنايةً عن وفاق غير متحقّق. أفراد أسرة بن ميلود المساهمة في الحوار هم الأب (عامل متقاعد) وابنته البكر (بلا عمل، تقيم في شقّة مجاورة وتزور ذويها كلّ يوم) والابن (صبيّ يافع ما برح في المدرسة) . جارتهم السيّدة مونييه تمضي سحابة نهارها في تحرير شكاوى تقدّمها للشرطة وللقضاء تتّهم فيها جميع أفراد الأسرة بالاخلال بالأمن العامّ. هناك زيارات البنت اليوميّة لأبويها، وهذا في نظرها غير طبيعيّ ، ألاّ تجد فتاة ما تعمل. وهناك زيارات الأقارب، زيارات لا تنتهي، خصوصاً في الأعياد، وما يتبعها من هرج ومرج. وهناك القطط التي تأتي غالباً لـ« تخمش » باب بيتها وتصخب في السلالم والأدراج. وعلى حين « تكتفي » السيّدة بالشكاوى وبما تدعوه الفتاة بالنظرات الساخرة، الماكرة، الحقود، فإنّ هذه الأخيرة وأخاها قد أشهرا منذ سنواتٍ سلاح السخرية الجَهور والسباب العلنيّ . وهي، أي الفتاة، لديها حججها : « هي لديها كلب، ونحن لا نقول شيئاً. تشكو من القطط، وعلى حدّ علمي فالقطط لا تنبح » . الأب يحاول التهدئة والفهم : « إنّهم (يقصد السيّدة مونييه وزوجها الصامت وأمثالهما) معزولون. تجدهم في سنّ متقدّمة ولا أحد يأتي لزيارتهم » . وعلى حين يقترح الباحث سبلاً للتفاهم على كلّ من الطرفين، تأتي الإجابتان مبرمتين قاطعتين. الفتاة : « لن نرحل. لن نرحل إكراماً لعينيها. تريد هي أن تصل إلى هذه النتيجة، ولكننّا لن نرحل. سنناضل. ضدّها وضدّ إدارة الإسكان وضدّ البلديّة وضدّ الجميع. سنناضل . . . » ومدام مونييه : « العرب يتزايدون هنا يوماً بعد يوم. أنظر المَتاجر والحوانيت، حوانيت الأغذية بخاصّة، كلّها في أيدي العرب. والحارة تفرغ من سكّانها الأصليّين يوماً بعد يوم . . . » . هو غيظ تراكم وتحوّل إلى آيديولوجيّتين متضادّتين و« بلاغتين » متناحرتين. ولا شكّ أنّه يجد في الاعلام السائد والتمثّلات الجماعيّة الشائعة ما ينعشه ويغذّيه.

في أسفل هذا السلّم الاجتماعيّ ، تجد عليّاً وصديقه الفرنسيّ فرانسوا، وكلاهما متأرجح بين إخفاقه في المدرسة وعجزه عن اختراق عالم التسلية والترويح. فعليّ لا أحد يسمح له بالدخول إلى العلَب الليليّة، التي تقبل بدخول

المراهقين ممّ ن هم في عمره، وذلك لأنّه عربيّ. صديقه الفرنسيّ لا يفهم دواعي ذلك، ويدافع عن رفيقه عبثاً. كلاهما من سكّان حارة مكتظّ ة ومتداعية تدعى، بمفارقة معهودة، « بستان الورد » La Roserie . عليّ ابن عامل مغربيّ مهاجر وصل إلى هنا في نهاية السبعينات، يوم كان عليّ في سنّ الثامنة. متأخّر في دراسة الفرنسيّة ويشعر بالرعب من اللحظة التي يطالبه فيها المعلّم بالقراءة بصوت مسموع. ولعلّ في إخفاقه الدراسيّ هذا ما يفسّ ر في نظر بورديو، الذي حاوره هو وصديقه الفرنسيّ فرانسوا، ما يفسّر سلوك التحدّي وشخصيّة « القبضاي » التي تمّاها على سبيل التعويض. أمّ ا فرانسوا، فإنّ سلوكه المشاغب دفع إلى طرده من مدرسة الحارة ونقله إلى مدرسة بعيدة يكره الذهاب إليها. كلّ شيء، يقول بورديو، يجمع الشابيّن إلاّ أصلهما العرْقيّ. أصل لم يتطرّقا إليه قطّ. وهذا التضامن الذي يشكّل للّحظة الحالية نوعاً من طوق الحماية لهما إنّما ينبع لا من خطاب آيديولوجيّ أو تقريظ للصداقة قد لا يكونان قادرين عليه، بقدر ما من اشتراكهما في نفس المعاناة و« السمعة السيئة »، سمعتهما كمشاغبَين وعنيفَين التي توحّدهما في نظر الشرطة والجيران. وهما لا يطالبان في أيّة لحظة بردّ الاعتبار إليهما ولا يستجديان الفهم. بيد أنّ أحدهما يعبّر في إحدى اللحظات، بكامل الصحو، عن وعيه لما يتهدّ د ذويه من خوف عندما يخرج في المساء، من جرّاء ما يسمعانه في المذياع والتلفاز.

كاظم جهاد

« الحزام » أحمد أبو دهمان، منشورات غاليمار، باريس.
Ahmad Abodahman, “La ceinture”, éd. Gallimard, Paris, 2000

طويلاً تساءل البعض وما زالوا يتساءلون عن أسرار النجاح منقطع النظير الذي حظيت به رواية « الحزام » التي وضعها بالفرنسيّة الكاتب السعوديّ ، المقيم في فرنسا منذ ما يقرب من ربع قرن، أحمد أبو دهمان، والتي صدرت عن إحدى أكبر دور النشر الفرنسيّ ة، إن لم تكن الأكبر: غاليمار. قبل أيّ ام، صدرت الطبعة السابعة للعمل، بعد سنة واحدة من ظهوره إلى النور. وبعدما وقّع الكاتب عقدَ ي الترجمة إلى الانجليزية والألمانية، هو ذا ينتظر توقيع عقود الترجمة إلى الاسبانية ولغات أخرى. بعضهم رأى سرّ هذا النجاح في الجدّة اللاّ فتة للعمل وإتاحته لنا الوقوف، لأوّل مرّ ة، على وجه آخر للعربيّة السعوديّ ة: عالم القرى والطفولة والفقر والتلاحم الاجتماعيّ حول رموز معدودة وقيم أساسيّ ة، قيم الأمومة والتآخي والكدح والايمان الفطريّ بالكائن وبالحياة. بضع آخر رآه في لغة الكاتب، البسيطة بساطة ممتنعة، والمحمّلة بالدلالات الرمزية من دون أن تسقط في شباك التأويل، والتي تقدّم عن العالَم الذي تصوّره وتستبطنه قراءة عميقة تتوسّل طرق الأنثروبولوجيا (التكوين الثقافيّ الأساسيّ للكاتب) وتعْ تقد الامتياز للغة الشعر (ممارسة الكاتب الأولى وأساس موهبته). ممّا لا شكّ فيه أنّ هذه العوامل تقف جميعاً وراء نجاح هذا الكتاب وهي التي تفسّر لغز فرادته.

تقع الرواية في أحد عشر فصلاً يحمل كلّ منها عنوانا ً مستقلاً ، يسبقها استهلال وجيز وتتلوها خاتمة هي الأخرى وجيزة. منذ الاستهلال يعلن الكاتب أنّ الكتابة هي بالنسبة إليه « اقتسام العالم وإعادة ابتكاره » . ويقول إنّه يكتب بالفرنسيّة ليشهد على أنّ « آخرين يفهمونني، يفهموننا، أكثر ممّا نفهمنا نحن أنفسنا » . فما هي عناصر

هذه الشهادة، المكتوبة في اتّجاه الآخَر، والتي ترتدّ إلى العالَم الأصليّ الذي ولد فيه الكاتب وعنه كتبَ ، ترتدّ إليه عبر الترجمة (وعدَ الكاتب بالقيام بترجمة عمله نفسه إلى العربيّة عمّا قريب) وعبر القراءات النقديّة والتناولات الصحفيّة؟ في القراءة التالية، نعرض أهم المحاور الكيانيّة والروائيّة التي يتأسّس عليها هذا العمل، والعناصر الأساسيّة للقراءة التي يقدّمها عن هذا العالَم فيما هو يكتبه.

القرية / القبيلة:

هناك أوّلاً القرية، والقبيلة التي تعيش على أرضها والتي ينتمي إليها الكاتب، « خليّة في الجسد الواسع للقبيلة »، جسد يسعى هو إلى الاستقلال عنه، استقلالاً لم يتمكّن، بتصريحه هو نفسه، من تحقيقه إلاّ في باريس، عبر المسافة وما تفتحه من أفق مراجعة نقديّة وتساؤل ممضّ. هي في نظر أهلها « القبيلة الواحدة النازلة من السماء. » فالقرية واقعة في منطقة جبليّة، تشكّل السماء فيها جزءاً من الجبال. هكذا بحيث يبدو المطر فيها وكأنه « لا يسقط، بل يصعد صعوداً ».

لقريته هذه، كما لجميع قرى العالم، طقوسها وشعائرها. يصف الكاتب هذه الطقوس بأناة وشعرية عالية. هناك أولاً الختان. يشرف عليه الخال، إذ « الخال في رحم الأم » كما يقول أهل القرية. هناك يصوغ الخال ابن أخته ويمنحه شاكلة وجود. هو أبوه الثاني، كما تقول للبطل أمّه. لإتمام هذه الشعيرة، يأتي كلّ صبيّ مهيأ للختان وقد حفظ قصيدة طويلة تطري على أصوله وتعرض شجرة أنسابه من جهتَي الأب والأم. يقرأها أثناء الختان حاملاً خنجرين طويلين يضرب أحدهما بالآخر عالياً فيما يقرأ قصيدته. كلّ كلمة يتعثّر في نطقها وكلّ أمارة على الضعف تدلّ على موته الاجتماعيّ ، فلا أحد سيفخر لاحقاً بتزويج ابنته لصبيّ كهذا. والصبيّ الذي يجتاز هذا الاختبار بنجاح يجد مكافأته في التمتع بـ « التدراع » وهو الحقّ في الاختلاء بإحدى الصبايا ومعانقتها من دون أن يتخلى أيّ منهما عن ثيابه.

كلّ ربّ أسرة في القرية يحمل مفتاحاً كبيراً هو مفتاح حجرة يخزن فيها مؤونة تمكّنه من إطعام الضيوف المحتملين في كلّ لحظة. ومن أضاع هذا المفتاح فكأنّه فقد رجولته، وهو يُدعى هنا « زوجة زوجته » أو « امرأة امرأته ». ويجتمع الرجال في وقت العصر في ساحة القرية الكبيرة، لتبادل الأخبار والكلام. ويحدث في أحد الأيّام أن تجتاز القرية، في عزّ اجتماع الرجال، امرأة محرّمة بقطعة قماش ملّطخة بالدم. هو دم طمثها، به، وبهذه الصورة الصارخة، جاءت تكذّب مزاعم الرجال في أنّها كانت حاملاً ، هي الأرملة. وسرّ هذه القماشة الملطّخة بالدم إنّما تكشفه لبطل الرواية أخته، فأبوه يؤثر أن يلزم الصمت.

من المعيب في القرية أن تمرّ قرب أحد ولا تلقي التحيّة. وهذا مما يتعارض مع مشهد الناس في المترو الباريسيّ ، لا يحيّي بعضهم البعض، مما يدفع البطل إلى مواصلة إلقاء التحيّة، وقد اعتادها منذ نعومة أظفاره، إلقاءها في ما يشبه الهمس.

يستيقظ أهل القرية مع أوّل تباشير الفجر، مما يمنحهم الحقّ في هذه المقولة الجميلة: « نحن من نوقظ الشمس ». ولئن كان هذا يهب أهلها الانطباع بالولادة مع الشمس كلّ يوم من جديد، فإنّ لديهم من عناصر التاريخ والأسطورة ما يعزّز لديهم هاجس البدايات هذا. كانت هذه القبيلة هي الوحيدة التي قاومت الغزو التركيّ ، فصارت القرى الأخرى تدعوها بـ « الوطن »: قرية واحدة صارت تلخّص البلاد بكاملها وتكون هي الوطن، كالوردة التي تحمل في داخلها البستان بحسب تعبير جلال الدين الروميّ. أمّا ولادتها الأسطوريّة، فيردّها أهل القرية إلى غضب الأب المؤسّس، رأى فيه إلى أبنائه الستّة وهم يخوضون حرباً مع قبيلة مناوئة ويغتالون سبعة رجال في ليلة واحدة. فيأمرهم بالتفرّق في عرض الأرض، كلاًّ في وجهة مغايرة. يقيم أحدهم، وكان لديه ابنة جميلة، في جوار مالك أرض القرية الأصليّ. يهيم الملاّك بالفتاة. وأبوها يطمع بأرض القرية. فيقترح على جاره سباقاً

بالركض مع الفتاة، يعود بموجبه إلى الأب كامل المجال الذي تجتازه الفتاة قبل أن يلحق بها الرجل، بعدما يكون تنازل لها عن بعض المسافة وجعلها تتقدّمه قليلاً. تركض الفتاة وتغيب عن بصر والدها ولا يوقفها إلاّ شوكة اعترضت طريقها ونبتت في قدمها. وعلى ما فازت به الفتاة، يؤسّس الأب القرية. وهذا كلّه ممّا يندرج بالطبع في فلسفة القرية، الداعية أبداً إلى العمل والتي تفهم الحياة كمحصّلة سباق وتجاوز للذات مستمرّين.

الغرام هو الآخر ولد للمرّة الأولى على أرض القرية، بحسب مزاعم أهل القرية وما تقوله أساطيرهم. بعضهم انتحر وقد أصيب للمرّة الأولى بهذا الشعور الجارف. ولحماية البشر والحبّ، حوّلت الشمس الحبّ إلى قوس قزح وتمخّضت عن هذه المروحة من الألوان الجميلة، الفاتنة. ولذا فإنّ البطل نفسه يدعو حبيبته «قوس قزحي».

القرية بكاملها مؤسّسة أخيراً ضمن بنية تنافذيّة يحتفظ فيها كلّ بيت بكيانه المنضمّ هو عليه وبـ«ثغرة» تسمح له بالانفتاح والتواصل مع البيوت الأخرى. فلكلّ بيت بابان، واحد من الأمام وثانٍ ورائيّ يقود إلى السطح. ويمكن للمرء أن يجتاز جميع البيوت، من باب ورائيّ إلى آخر ومن سطح إلى سواه. وغالباً ما يتلصّص الشبّان في الليل على ما يدور في البيوت، خصوصاً في ليالي الزفاف، يترصّدون فرح العناق الأوّل وصرخة اللذة والألم الأولى.

حزام:

«حزام»، الذي وهب الرواية عنوانه، هو، إلى جانب الأمّ، الشخصية الأكثر إثارة ومحورية في هذه الرواية. يأسر هذا الشيخ بطلَ الرواية الصبيّ منذ البداية بفلسفته التي هي مزيج من الأقوال المأثورة عن السلف والتعاليم الدينيّة والتفكير الشخصيّ الفريد. فهو مثلاً يؤمن بأنّ المرض ليس سوى كذبة أو وسيلة للتملّص من العمل. العمل هو لديه العلاج الوحيد لكلّ ضعف أو داء أو تعب. لا لأحد أن يتبرّم من الحياة أو يشكو من ضعفه. وبصورة مفارقة، يرى حزام أنّ الأمراض لم تأت إلى القرية إلاّ بعد وصول الممرّض المصريّ الذي جاء للعمل في المستوصف الذي أقامته الحكومة فيها. قبل ذلك، كان أغلب أهل القرية يعالجون همومهم وعللهم بالغناء.

رجل بلا لحية هو في نظر حزام إنسان زائف. وهو يمشي حافياً على الدوام حتّى لا يفقد صلته بالأرض. ويرى في نحافة الرجل علامة على فحولته، فبطن الرجل يجب أن يكون مستوياً كبطن الذئب. ولئن كان يزدري النساء، فهو يسارع إلى تحيّة العروس غداة زفافها، وتكون هذه تحيّته الأولى والأخيرة. عدا ذلك، يرى في الحقل مكان الرجل الطبيعيّ، وفي المسجد آخر قلعة للمقاومة في وجه التحديثات غير الضروريّة في نظره والمُفسِدة (المدرسة، المستشفى، إلخ.). وفي وصف البطل لزيارة سيقوم بها رجال القرية وأبناؤهم لمستشفى المدينة المجاورة، لفحصهم وتثبيت أحوالهم المدنيّة، نرى إلى حزام وهو يبصق لدى مرور كلّ ممرّضة باكستانيّة. كما أنّه يحذّر الصبيان من فقدان ذكورهم لدى الفحص، فالمؤسّسة الطبيّة لا تقوم في نظره إلاّ بفعل إخصاء. وهو يفحص بالفعل ابنه بعد عودة الأخير من مكتب الممرّضة ويتنفّس الصعداء عندما يتحقّق من أنّه حافظ على ذكره.

لا يصدّق حزام كلام مَن لم يُختَن بعد ولا يحمله على محمل الجدّ. والكلام عموماً لا يحظى باحترام كبير عنده. ولذا تراه وهو يحشو فاه بالزبيب والتمر باستمرار. يفعل ذلك ليلزم السكوت. يعتبر نفسه الضامن الأخير لروح القرية، ويريد أن يورث الصبيّ، بطل الرواية وراويتها، معرفته الكاملة بأسرار القرية وحكمة الحياة. مقابل ذلك، يطالب الصبيَّ باجتراح معجزات، وبأن يعرب عن قدرة على التواصل مع الظواهر فوق الطبيعيّة التي يمكن في نظره تطويعها بالصدق وبنوع من الرياضة الداخلية. إنّه يسأل الصبيّ مثلاً أن يلمس أمامه السماء، أن يثير عاصفة بمجرّد نظرة منه، وأن يتحوّل إلى صخرة. ويطلب منه أن يتذكّر أوّل إحساس كان له في لحظة

ولادته. ويحدّد حزام فحولة المقابل انطلاقاً من سكّينه ومن علاقته بهذه الأداة. رجل بلا حزام وبلا سكّين ليس سوى طفل أو مزحة. ومثلما ينتشر الحزام في دلالات متعدّدة على امتداد الرواية، فالسكّين هي الأخرى حبلى بدلالات شتّى، حقيقيّة ومجازيّة. اللّه خلق الرجل في نظر حزام على هيأة سكّين، مدية قادرة على قطع كلّ شيء، في كلّ لحظة. كلماته، نظراته، أفعاله، نومه نفسه، هذا كلّه ينبغي أن يكون بصلابة المدية وسرعة أثرها. وسكّين الرجل، هذه التي يحملها معلّقة إلى حزامه، هي وعيه، ضميره. السكّين تصنع الرجل، لا لحيته ولا ذكره.

يمقت حزام لا الطبّ وحده، بل كلّ ما هو كماليّ وإضافيّ وكلّ ما هو زيادة نافلة في رأيه إلى الطبيعة. هكذا تعرض عليه زوجة حانوتيّ القرية شيئاً من الحنّاء لابنته، فيرفض أخذه ويقول: «لا أدري كيف يُصنَع الجمال صنعاً. يكون المرء جميلاً أو لا يكون. لا أجمل من الطبيعة». أخيراً، يؤمن حزام بأنّ لكلّ امرئ عدداً من الابتسامات محدوداً في حياته، وأنّنا إذْ نبتسم بمناسبة وبلا مناسبة، فإنّما نبذّر ابتساماتنا. وابتسامة الانسان الأخيرة (لكنْ مَن يحدس أنّها الأخيرة؟) قادرة على تحويل الشجر العقيم إلى شجر مثمر.

هذا كلّه ينشئ بين حزام والبطل الصبيّ علاقة تماهٍ وتبنٍّ ووعد والتزام. فعندما يلقي حزام بسكّين الصبيّ أرضاً بعدما عجز عن أن يحلق بها شعر ساقه، يقول له الصبيّ: «سأكون الشابّ الذي تحلم به». ويظلّ هذا الوعد يرافق الرواية حتّى آخرها. سيكون حزام هو الأب الروحيّ للفتى، يتنازع في داخله هذه السلطة مع أبيه الفعليّ، الذي لا يفتقر هو الآخر، كما سنلاحظ، إلى الشحنات الرمزيّة والدلالات الفكريّة التي ستساهم في تأسيس وعي بطل الرواية.

الغناء:

من أهمّ ما تمتاز به هذه القرية، ومن أكثر ما يشكّل وعي الصغير بطل الرواية، إلى جانب دروس حزام وتعاليم الأمّ التي سنعرضها أدناه، التزامها، أي القرية، بموقف غنائيّ من الحياة وانخراطها في الغناء في كلّ مناسبة وأمام كلّ مأزق. الغناء هو هنا هبة طبيعيّة لا يكاد يضيف إليها البشر شيئاً خلا الأداء. هو ضرب من الفيض الوجدانيّ والطبيعة السمحاء التي تنساب من السماء والنجوم والرمل والماء والذوات وتغمر كلّ شيء. لكلّ نشاط في القرية غناؤه الخاصّ. لا أحد يقوم بشيء من دون الغناء. لا شيء يمكن أن ينبت بدونه أو ينمو أو يكتمل. وترى أمّ البطل أنّ القرية نفسها كانت في الأصل أغنية، والناس جميعاً قصائد، وكذلك الشجر والنبات والأزهار والصخور والماء. تقول له: «إن أنت أصختَ سمعاً للأشياء سمعتَها تغنّي». ولذا يحسب الصبيّ أنّ أصوات الأجداد قد امتزجت بالتربة كمثل السماد، وأنّ جميع الثروات الطبيعيّة آتية من غناء الأسلاف. والشيخ حزام يعزّز في داخله هذا الاعتقاد، إذ يقول له إنّ الأسلاف كانوا يغنّون حتّى في نومهم. سوى أنّ بعضهم كانوا في نظره، أي حزام، يغنّون لتمجيد العمل فحسب. أمّا الغناء الذي يجد غايته في الطرب وإعلاء نشوة الحياة فقد لا يحبّذه حزام، خلافاً لأمّ البطل – الراوية التي تجد الغناء في كلّ شيء ولكلّ شيء. وعلى حين يلعن حزام سكّان «الطرف» (وهي التسمية التي تُطلق في القرية على مجموعة من الأسَر المهمّشة وغير المتمتّعة بكيان قبليّ واضح ولا بشجرة أنساب دقيقة) لأنّ بعضهم أشاعوا الغناء – الطرب، فإنّ الأمّ تعترف بفضلهم وإضافتهم الوجوديّة لحياة القرية. وهي ما انفكّت تردّد أنّه بفضلهم صار الناس يحرثون الأرض أفضل من ذي قبل. لقد أدخلوا للقرية لا الغناء وحده، بل كذلك الرقص والملابس الملوّنة والحنّاء والقهوة والسكّر وأدوات العمل والسجّاد، وخصوصاً المفاتيح، وهذا ما يجرّ بدوره غضب حزام، فقبلهم، كما يقول، لم يكنّ يعنّ لأحد أن يقفل باب داره. هكذا تلتقي فيهم وتتضافر سلسلة من الصفات المزدوجة وشبه المتضادّة، هذا الافتتان والخوف اللذان يثيرهما الأجنبيّ أو الغريب. والبطل

مفتون بالفعل بحركيّة «الطرف» الفائقة، فهم يسافرون باستمرار، وبلا خوف. يكفي أن يرفعوا راية بيضاء يعلوها رأس ديك ليخترقوا مضارب القبائل المتناحرة التي لا يقدر أبناء مختلف القبائل اجتيازها من دون المجازفة بالموت. أبو البطل نفسه أمضى ردحاً من شبابه يرافق «الطرف»، يسهر معهم ويغنّي، حتّى لقد لُقّب بـ«الرَّعدان»، أي هذا الذي، بسحر غنائه وحده، يُحدث الرعدة في أذن سامعيه. البطل، من ناحيته، يدعوه أحد «أمراء الليل» – تسمية جميلة. هذه الحركيّة يدركها حزام بكامل قوّتها، وإن كان يشجبها من أجل ذلك. يقول للصبيّ: «نحن نتزوّج الحقول. إنّنا متجذّرون. وأهل الطرف مخلوقون من الريح. فأنّى لك أن تتزوّج الريح؟».

الأمّ:

لأمّ البطل مكانة محوريّة في هذا العمل تتجاوز المكانة العاطفيّة التي ترافقها تقليدياً. وربّما كان أوّل وأغنى ما تهبه لابنها هو محبّة الشعر، فقد كانت شاعرة بالفطرة، تؤمن بقوّة الكلمة وسلطان الغناء. الشعر يمنح في نظرها الأشياء لونها الحقيقيّ. وحده الماء احتفظ بالقوّة والطاقة الضروريّتين للحياة، قوّة وطاقة وحدهم الشعراء يحدسونها. خصوصاً ماء العينين، ففيه ينعكس ما نحن في حقيقتنا، في ألوان ثرّة متعدّدة.

كانت أمّ البطل قد فقدت زوجها الأوّل لأنّها «سرقت» من دارها حفنة من البنّ أعطتها لجارة محتاجة فعوقبت بالطلاق. وهي وحدها عرفت أن تحوّل أحد «أمراء الليل»، والد بطل الرواية، إلى رجل حقيقيّ. تذهب الأمّ برفقة النساء الأخريات إلى أعلى الجبال بحثاً عن الحطب. يخرجن في منتصف الليل ليعدن أوّل الفجر للمساهمة في أعمال الحرث مع رجالهنّ. يتناولن طعامهنّ سائرات. ولمّا لم يكن لدى الأمّ ما تأكله، فهي تمضغ الحبل الذي به تشدّ على رأسها كومة الحطب. ولمّا كانت تسير في مقدّمة الصفّ دائماً، فلم تكتشف النساء حيلتها ولم يعرفن ما كانت «تأكل». ولقد علمّتهنّ الغناء، فصرن يدعونها «شاعرة الجبال».

علمّت الأمّ ابنها الشعر، ودرّبت أخته على الموسيقى. حتّى صار الصبيّ يحسب النجوم كلمات لا تفعل أمّه سوى أن تقتطفها وتحوّلها إلى أغان. ولكي تعاقبه أمّه لكونه ضرب مرّةً أخته، راحت تغنّي له طوال ليلة. فأجهش بالبكاء واعتذر بإلحاف. موقف صادقَ عليه الأب إذ قال له مؤنّباً: «أختك أغنية، فكيف يمكن الإساءة إلى أغنية؟». ولمّا رأته أمّه يكذب للمرّة الأولى، قالت له إنّ للأمّ عيوناً وآذاناً وأنوفاً وأيدي في جميع الاتّجاهات. وهذا ما صادق عليه الأب أيضاً إذ قال للصبيّ إنّه «وحدهنّ الأمّهات يفتحن جميع الأبواب».

لكنّ تعاليم الأمّ تتعدّى موضوع الغناء لتشمل سائر جوانب الحياة. فهي تنصح بعدم ممارسة الحبّ بكامل العري، لأنّ صدر المرأة قادر على إشعال حتّى الأرض. وعندما يرفض الصبيّ في البدء تعلّم السباحة، تنصحه أمّه بالعودة إلى البيت ليساعد أخته في تنظيف الصحون. فيقرّر أن يتعلّم السباحة ليظلّ صبيّاً. وأن تكون صبيّاً هو أن تتحلّى بالشجاعة. مجرّد الشعور بالدوار أو الدوخة فقدان للشجاعة. ولا يكون الانسان إنساناً في نظر الأمّ ما لم يتحلَّ بصفات القطّ الثلاث وصفات الحمار الثلاث. صفات القطّ: إنهاء وجبته من الطعام ومعرفة أعدائه وإخفاء فضلاته. وصفات الحمار: الشرب ببطء وبكفاية، وحَمل الحِمل ومعرفة الطريق.

هذه التربية العاطفيّة والوجدانيّة الكاملة ترافق الصبيّ، الرجل القادم، في جميع المراحل. فعندما يبلغ السنّ التي لا تعود تسمح له بمواصلة النوم إلى جانب أمّه، صار هو وأمّه يؤخّران لحظة الذهاب إلى الفراش ويماطلان في النوم، حتّى تواصل الكلام معه وليواصل الامتلاء بالدفء والشِّعر. ولدى عودته بعد سنوات من مدرسة المدينة إلى القرية، محمّلاً بالهدايا، تدَعه ينام في فراش أبيه، وكان الأخير غائباً للمعالجة. هناك ينام الشابّ وحده، برفقة عصا الأب وسكّينه، وكانت هذه علامة تكريسه رجلاً. كما يهيئه كلّ من حزام والأمّ للحِداد وقبول الموت، موت

القريب الذي فيه ينعكس موتنا نفسه: «كنت أصغر منك عندما توفيّ أبي»، يقول له حزام. وأمّه تروي له حكاية آسرة تعيدنا كذلك إلى قوّة الغناء وارتسامه شرطاً للحريّة. ففي اليوم الذي فقدَ عبد ابناً له، أمره مالكه بالذهاب للعمل حال رجوعه من دفن الابن. فطفق العبد يعمل ويغنّي، أغنية نترجمها عن الفرنسيّة لعدم توفّرنا على نصّها الأصليّ بالعاميّة:

«آه يا غرابي!
آه يا غرابي الأسوَد!
يا ثمرتي التي دفنتُها
آه يا ثمرتي
أنتَ ثمرتي، أنتَ روحي
آه يا ثمرتي السوداء!
إنّني أدفن عينَيّ
آه يا ثمرتي
كان ينبغي أن أدفنَني».

فيدور على أثر ذلك بينه وبين سيّده هذا الحوار:

«– لم يكن لك الحقّ في الغناء.

– أعرف. لقد قلتَ لي ذلك. إنّني لم أفعل سوى البكاء.

– بل لقد غنّيت. ولقد علّمتَني ما هي الحريّة.

– لكلٍّ حرّيته.

– لو تقاسمنا أنا وأنت الحقل والغناء!

– سأكون في هذه الحالة أنا السيّد.

– لكلٍّ حرّيته.»

وفي موقف آخر، محمّل هو الآخر بالدلالات الرمزيّة، نرى الى الأمّ وهي تعالج خفّاشاً سقط في الحجرة وتدهنه بالزبدة. تقول لابنها إنّه يمثّل روح أحد الأسلاف. وعندما تدخل أخته تقول له الأمّ إنّ خفّاشاً آخر يدخل. في هذا التمازج بين المخلوقات وعبر هذه الشاكلة في تهديم السدود بين العوالم، يرى الراوية بقايا معتقدات سابقة للاسلام استطاع أهل القرية، كما في سائر البلاد العربيّة، إدخالها في ثقافتهم الشعريّة وإدراجها ضمن آثار مخيالهم الجماعيّ.

والأمّ، أخيراً، هي من تزوّج بعلها، أبا البطل، من زوجة ثانية أكثر فتوّة، عندما كبرت هي ولم تعد قادرة على الاضطلاع بشؤون البيت. ولكي تدَع للزوجة الجديدة كامل سلطانها على البيت وحريّتها فيه، تهجر الأمّ المنزل الزوجيّ وتضطلع بكامل الشجاعة بحياة متوحّدة، لا سيّما وأنّ الأخت وجدت هي الأخرى طريقها إلى الزواج. وأثيرة هي الصفحات الختاميّة التي يصف فيها البطل، العائد من المدينة بعد الدراسة، اكتشافه لعمل الزمن وأثره القاضم للأشياء والذوات. كان يحسب أمّه قصيدة. والآن «اكتشفتُ أنّها كائن إنسانيّ. لم يعد أمامها سوى حياة عاديّة، حياة تتضمّن على الأمراض والتعب والهموم الصغيرة والشيخوخة، حياة عاديّة». ولمّا كان الأب مريضاً وغائباً للمعالجة، فإنّ الصبيّ يستدين للعائلة من حزام عشرة ريالات، يقول له حزام إنّ قيمتها المعنوية تعادل مائة ريال، ويصادق هو على ذلك، لأنّ وراء هذه الريالات العشرة عناء أجيال متوالية. بعد ذلك، يعود الصبيّ إلى المدينة صحبة رفاقه، هناك حيث ينتظرهم الفقر والمهانات اليوميّة والجوع والمدينة الصغيرة «التي تعرف الغناء لحسن الحظّ». ولدى عودته، يجد في حقيبته الحذاءين اللذين كان سرقهما ليهديهما لأمّه: كانت عينها المسلّطة عليه من داخله تحدس كلّ شيء وتحيط بكلّ شيء.

إلى جانب الأمّ، هناك أخيراً الأخوات اللائي يشاركن هنّ أيضاً في ترسيخ عالم الأنوثة العارفة والعميقة هذا. أخوات شقيقات وغير شقيقات يمنح كلاً منهنّ اسماً شعريّاً، فواحدة اسمها «أختي – ذاكرتي» وثانية اسمها «أختي التي أُحبّ»، وثالثة اسمها «أختي التي تحبّني»، إلخ.

الأب:

بالرغم من تواضع المجال المعقود له في الرواية، بالقياس إلى حضور الأمّ وحزام المتواصل، يتمتّع الأب بمكانة فعليّة في هذه الرواية. قلنا إنّه بدأ حياته بمحبّة الغناء والتنقّل

في السهرات مع أبناء «الطرف» وإنّه كان يُلقَّب لذلك بـ «الرعدان». ثمّ صار يتنقّل للاتجار، بعدما استدان مبلغاً صغيراً من جار له راح يتقاسم معه الأرباح وكان لبُخله يُدعى بـ«الصخرة». لكنّ الأب، في محادثاته مع ابنه، بطل الرواية، التي تساهم هي الأخرى في تعزيز تربيته العاطفيّة والعمليّة، يقول له إنّ رأسماله الوحيد كان هو خبراته وصداقاته المكتسبة في التجارة: «صار لي قصر في كلّ جبل»، يقول له مشيراً إلى معارفه.

يكتسي الأب قدراً من الانسانيّة كبيراً عبر بعض الصفات والممارسات. فكان لا يقدر على الأكل من دون تلويث ثيابه. كما أنّه يفقد مرّةً مفتاح حجرة الضيوف، ولا يهدأ بال الصبيّ حتّى يستعيد الأب المفتاح، رمز فحولته. وكان مولعاً بالمطر. يقول لابنه إنّ لكلّ مطر نباته الخاصّ، وهو يتلقّى المطر بكامل مسامات جسمه، عارياً في العراء، ويدعو ابنه إلى أن يفعل مثله. وما كان ليتوقّف عن أعمال الريّ إلاّ من أجل الصلاة. وفي اليوم الذي يستعيد فيه مفتاح مخزن طعام الضيوف، يصلّي ابنه معه، إلى جانبه، «كما لم يصلِّ قبل ذلك أبداً»، بتعبيره هو نفسه.

والأب هو الآخر، بالنسبة إلى الابن، معين للأساطير والحكايات لا ينضب. يسرد له حكايات عن الجنّ، الطيّبين الذين يمدّون الشعراء بالالهام والذي يوقظون رجلاً في منتصف الليل ليدلّوه على كنز مخبّأ، والخبثاء الذين هم على هيئة أفاعٍ تقتل نفسها إن لم تفلح في القتل. وكان للأب خنجر ثمين يضطرّ لبيعه لشراء ثور، بعدما نفقَ ثور الأسرة. يرفض جاره، الذي كان يذهب للشحذ في المدينة، اشتراء الخنجر، لمعرفته بأنّ قيمته لا تُقدّر بدراهم وريالات. ثمّ يشتريه بعد إلحاح، ولكنّه يخفيه طالما كان الأب على قيد الحياة.

البطل:

من هذا كلّه يحتفظ البطل بعناصر مكوّنة أساسيّة يضيف إليها مكوّناته الشخصيّة الخاصّة. هو مزيج من غنائيّة الأمّ ووعيها الشعريّ العالي بالحياة، ومن طابع الحسم لدى حزام وتمجيده لإرادة العمل، ومن محبّة التنقّل لدى الأب وإيمانه بالقوّة التي لا تُعوَّض للرموز وبعض الأشياء الملازمة للانسان والتي تنهض كحوامل للوعي وشواهد على الوجود. هذا البطل، الذي نتعرّف عليه في البداية طفلاً تغذّيه الأمّ وحزام بالحكايات، ثمّ صبيّاً يافعاً يغزو المدينة للدراسة، وأخيراً روائيّاً يعيد خلق عالمه الأصليّ في مدينة غريبة (باريس) بلغة أجنبيّة (الفرنسيّة)، هذا البطل هو قبل أيّ شيء آخر نظرة. كتبَ: «كان حزام يعرف أنّني أخترق الآخرين بمجرّد النظر إليهم». وهو، إلى ذلك، بوح. ففي قرية يتمثّل شعارها ودعاء أبنائها اليوميّ في المقولة: «اللّهم احفظ سرّي وسرّ ذويَّ إلى الأبد»، يجد هو متعة قصوى في الافشاء بجميع الأسرار التي يودعه إيّاها الآخرون. وعن عجب، فكلّما أفشى للآخرين بأسراره، أفشى له الآخرون بدورهم بأسرار عديدة من حياتهم الخاصّة. وليتخلّص من مخزونه الهائل من الأسرار هذا، يدوّن ذات يومٍ جميع أسرار القرية في لائحة طويلة يعلّقها على باب دار أهله. نجم عن هذا مشهد سحريّ حرّر القبيلة وأطلق من عقالها جميع عواطفها المكبوتة. لقد خرج جميع أهل القرية من بيوتهم وراحوا يحتفلون باكين. كان ذلك كمثل يوم نشور وانبعاث. شيخ القرية نفسه استقال، فـ«قرية بلا أسرار ليست بحاجة إلى شيخ»، على حدّ تعبير الشيخ نفسه.

تتوالى حياة هذا الصبيّ كسلسلة من الأفعال التأسيسيّة والمبادرات التدشينيّة. ففي اليوم الذي يعود فيه لأخواته وأمّه من أحد أعراس القرية بعظم علق به شيء من اللحم، احتفظ به تحت حزامه، تحتفل العائلة بفعله هذا الذي جاء ليكرّس وصوله عتبة المسؤولية والرشد. وعندما يعود أبوه ويعلم بنبأ العظم – التحفة، يذبح للمناسبة خروفاً. في اليوم التالي، يهديه الأب سكّينه الأولى مع حزام من الجلد جميل، ملوّن. أمّه، من ناحيتها، تذكّره بسلطة الخال وبالانحدار الأموميّ

للرجولة: «إسمع يا بنيّ، تقول له. إنّ خالك يقبع في داخلك. إنّ شرف العائلة بين يديك. وإذا أصبح الصبيّ رجلاً، فلأنّ الخال هو كذلك من قبل».

ويتجلّى العشق داخل الصبيّ وفي سلوكه على هيئة خروج متواصل عن القاعدة. يبالغ الصلاة مثلاً ويُفاقم أفعال العبادة، فيلاحظ ذلك والد المعشوقة نفسه وينصح ذويه بالعناية بابنهم. ثمّ يروح يتبختر على ظهر حماره أمام المعشوقة وأمّها ويعثر به الحمار ويسقط هو، فيشعر بالعار. وهنا أيضاً تأتي أمّه لنجدته وتنصحه باستمالة قلب المعشوقة بالغناء. وينصحه حزام برؤية الشمس في الليل، فيسهر ليالي عديدة إلى جانب امرأة عجوز عارفة بجميع أسرار القرية. لا يفلح في رؤية الشمس ليلاً، ولكنّ العجوز تلقّنه جميع الأسرار. هكذا يتزوّج جنونه («لستَ مجنوناً بالفعل، ولكنّك مجنون بالغناء»، يقول له حزام). صار التلميذ الأذكى في المدرسة، وباتت القرية تخشى معرفته بأسرارها. ولدى وفاتها، تورثه العجوز المذكورة جميع حقولها، فيقول له حزام: «نلتَ بالغناء كلّ ما لم أفلح بنيله بأموالي».

لكنّ الصبيّ، الذي كبر ونال شهادة المدرسة الابتدائيّة، بات عليه أن يغادر القرية و«قوس قزحه»، ليحقّق حلم أبيه وأساتذته: أن يصبح صحفيّاً. ذلك بالنسبة إليه «ضرب من الموت». فركض وشرب من جميع الآبار واجتاز القرية بكاملها مغمض العينين. وفي كلّ مرّة يعود فيها إلى القرية في إجازة، سيجد أمامه اختباراً آخر وعتبة تلقينيّة جديدة يجتازها. مرّة يفقد «قوس قزحه»، التي تزوّجت من شابّ آخر وتركت للبطل خصلة من شعرها وقارورة عطر. وحزام هو الذي جلس إلى جانبه ليؤاسيه، على صخرة سمّياها «صخرة الذاكرة». مرّة أخرى، يشارك أباه في ذبح خروف الأضحى، ولمّا كان الوالد مريضاً وعلى أهبة الرحيل للمعالجة، فإنّ هذه هي المرّة الأولى التي تشهد فيها العائلة صعود الابن وتراجع الأب.

المدرسة / المدينة:

ترتسم المدرسة (الثانويّة) والمدينة، ومن قبلهما المستوصف والمستشفى، كمؤسّسات تقع على طرفي النقيض من «المؤسّسة» التي تمثّلها القرية أو القبيلة، ومصدر تهديد بالتقوّض لن تفلح القرية في تطويعه إلاّ بالتدريج، وبفضل أبنائها (وبينهم البطل) الذين سيشكّلون ما يشبه «رزّة» أو همزة وصل بين عالمَين ومخيالَين.

قبل المدرسة الثانويّة، كان مستشفى المدينة قد بدأ يجتذب بعض أبناء القرية. كان أحدهم قد عُيّن مسؤولاً عن أمن المستشفى. فراح آخرون يلتحقون به ويجدون في المستشفى نوعاً من الفندق المجانيّ يُتاح للبعض العثور على عمل فيه فيما يعود آخرون بخفّي حنين.

يذهب الصبْية لإكمال الدراسة في المدينة متكافلين متضامنين، حاملين معهم من القرية، في صرَر محفوظة بعناية، كميّات من الرزّ والطحين وما يلزمهم لكفاف اليوم. لكنّهم لن يبطئوا في اكتشاف ضرورة غزو المدينة بأفعال تنمّ عن دهاء وجرأة متدرّجين. يحلبون في السرّ عنزات أحد الجيران، وينهبون محتويات حانوت كان صاحبه، وكان يعرف ذويهم، قد رفض أن يبيعهم بالدَّين بعض ما يحتاجونه من موادّ غذائيّة. وهم يهبّون كجسد واحد للمطالبة باسترداد حزام رفيق لهم وسكّينه، كان جارهم، صاحب البيت الذي استأجروا غرفاً فيه، قد صادرهما منه بغير حقّ. وشديد الدلالة هو المشهد الذي نرى فيه إلى الصبيْة، في عمليّة لتطويع غربتهم في المدينة، وهم يكتبون اسم قريتهم على جدران الغرف ويخرجون إلى الشوارع حاملين سكاكينهم ومتمنطقين بأحزمتهم التقليديّة. مشهد يعيدنا بدوره إلى مغامرة بطلنا العاثرة في قريته، عندما ذهب إلى مدرستها في أحد الأيّام بالزيّ الحديث وشرع، لدى رفع العلم، بإلقاء التحايا المعهودة إلى الوطن وأعضاء الحكومة والأساتذة ورأى إلى بنطاله وهو ينزل تدريجيّاً حتّى يبلغ قدميه. ومن حسن حظّه أنّ قميصه كان طويلاً بحيث يغطّي ساقيه، وأنّ معلّمه

هرع لإنجاده فصعّد البنطال وأمسك به حتى الفروغ من إلقاء التحيّة أمام العلَم.

ويتمثّل فعل الغزو الأكبر لفضاء المدينة الاجتماعيّ بقيام أحد رفاق البطل بإعالة جميع أصحابه بارتياده نساء التجّار وكتابته رسائلهنّ وإرضائه حاجاتهنّ جميعاً. كان يعود كلّ مساء لأصحابه بأشهى أنواع الطعام. بفضله، تمكّن رفاقه من النجاح وعاد هو في نهاية العام الدراسيّ يحمل ما كانوا يعدّونه «فشله» وما كان يؤرّق ضمائرهم بشدّة. لكنّه كان يعدّ نفسه هو الرابح، إذ عاد للقرية بمعرفة واسعة في الحياة وبعدد من الهدايا جعلت رفاقه يتلاشون وراءه لدى استقبال القرية الجماعيّ للعائدين.

ولئن كانت المدينة تشكّل مصدر إثراء للقرية، فهي ظلّت تمثّل من نواحٍ أخرى إمكان فسادٍ للأبناء. فالمسؤول عن أمن المستشفى يُفرح ذويه وجيرانه ويفجعهم في آنٍ معاً. يُفرحهم إذ يأتيهم بملابس قام الأولاد بارتدائها فوق ملابسهم الريفيّة («كنّا نرتدي العاصمة فوق القرية»، كتب الراوية في عبارة تعبّر بصورة بليغة عن تراكب هذين العالَمين وتمازجهما). ويفجعهم إذْ يُمعن في التدخين أمام ذويه ومستقبِليه، وكانت هذه في نظرهم عادة مستورَدة وهجينة. أفقده هذا جانباً من حظوته كبيراً. كانت القرية حزينة. وعرف أهلها بعد ذلك أنّ أبا المعنيّ نفسه قد أجهش بالبكاء.

وعلى العموم، فالموقف من المدرسة، بدءاً بالمدرسة الابتدائيّة في القرية نفسها، يظلّ مشوباً بالحذر وبالخيبة. فالمعلّمون حملوا للقرية عادة استخدام القمامة. قبلهم، لم تكن الناس لترمي شيئاً، إلاّ الرماد. وائتهم الآباء المدرسة بإحالة أبنائهم جبناء، وفي عبارة أحد المعلّمين: «أبناؤكم أبناء الحكومة»، لحظ الآباء تغيّراً سلالياً بالغ الخطورة يهدّد بإحلال الجسد الرسميّ الواسع والمتناثر محلّ جسد القبيلة المتضامّ والمنغلق على ذاته. ولا أكثر خيانة ونكراناً في نظرهم ممّن يغادر القرية بعد بيع ممتلكاته فيها. وما كان ليسرّهم أن يروا إلى علم البلاد وهو يحلّ محلّ راية القبيلة، وإلى النشيد الوطنيّ الصباحيّ وهو يحلّ محلّ صلاة الفجر التي تؤدّى في مسجد القرية والتي منها ينسلّ القرويّ الى فعل عبادته الآخر المتمثّل في الحرث.

بالنسبة إلى الصبيّ الذي كانه بطل الرواية، مثّلت المدرسة التخلّي عن السكّين، تقليم الأظافر، الإمعان في النظافة، الكفّ عن السير حافياً والامتثال لتعاليم أساتذة آتين من مصر وسوريا والأردنّ. وخصوصاً الاكتساب التدريجيّ لحقيقة شخصيّة داخليّة حيثما كانت القبيلة تريد الاحتفاظ به «خليّة صغيرة في جسدها الكبير». كانت الكلمات التي بدأ يتعلّمها في المدرسة تبدو له «أكبر من الحقول»، كلمات يلمسها ويتصوّرها، لا يقرأها فحسب. إنّه ينفتح إلى عالم آخر سوى عالم حزام. لا غرابة، والحالة هذه، أن تتمثّل إحدى الكلمات الأثيرة لديه في «العالَم». عالَم ينال هو والصغار الآخرون فيه الحقّ بالضحك والبكاء والكلام واللعب: يكونون صغاراً لا سكاكين.

في باريس، أعاد البطل خلق قريته لأنّه قام، طيلة سنواتٍ، بإعادة اكتشافها. جاء وهو يحمل معه طبائعها وطقوسها. قلنا إنّه ظلّ يحيّي جميع الناس في المترو (القطار الجوفيّ داخل المدن)، وإذْ لا يردّ عليه أحد، فهو يواصل إلقاء التحيّة همساً. فرنسا التي يختار هي، بتعبيره، «بلد إيلوار وأراغون وبريڤير»: سلالة شعريّة يضعها بمقابل شجرة أنسابه التي يسردها في الصفحة الأولى من الرواية والتي تقوده إلى قحطان، السلف البعيد، وأبعد منه. كتب: «في باريس، استطعتُ أن أرى بلدي وقريتي. هناك، كنت شاعراً فحسب. وباريس مكّنتني من أن أكون إنساناً بكاملي. وهذا هو المعنى الحقيقيّ للحداثة.» والمسافة التي تفصله عن القرية وتجمعه بها في آنٍ معاً، هي التي أتاحت له أن يقوم بفعل الكتابة هذا الذي يُطلقه هو كإعلان استقلاليّ: «ما تزال القبيلة تنظر إليَّ كخليّة صغيرة في جسد واسع، خليّة سوداء في نظر البعض، لأنّني تزوّجتُ من فرنسيّة».

إبتعد الصبيّ، والكاتب الذي سيكونه، عن القرية، ولم يبتعد. «أحمل قريتي في داخلي كمثْل شعلة لا

تخمد »، كتبَ في مطلع الرواية. ولدى اكتمال العمل، يهتف إلى حزام، وكان في المستشفى، ويُعلمه بأنّه سيسمّي روايته « حزام »، لأنّ « الحزام يكشف، أمّا الحجاب فيُخفي ». يسأله حزام: « ألم تبعْ قريتك على الأقلّ ؟ »، فيجيب الكاتب – الراوية: « من ذا الذي يقدر على بيع روحه؟ ». فيعده حزام بأن يترك له حزامه وسكّينه (وهذا ما حصل) ويقرّ أمامه أخيراً بعظمة المرأة: « أبداً لم أكن متّفقاً مع أمّك التي كانت تنظر إلى القرية كأغنية. لكن قلتَ لي إنّ النساء رافقنك طوال الكتابة. أنحني إذن أمامهنّ ما دمن أنقذنَ القرية من الضياع ».

في محلّ آخر من الرواية كتب البطل – الراوية: « أنا نفسي نُصبٌ تاريخيّ »: نصب يحمل، في تكوينه العضويّ نفسه، رموز عالمه الأصليّ وآثاره. ولئن كان يجهل العام الذي ولد فيه، فهو يتذكّر جيّداً اليوم الذي أخرج فيه إخصّائيّ القدَم من باطن قدميه بضع أشواك منغرسة فيهما كحيوانات متحجّرة. تاريخ وما قبل تاريخ. والكتابة هي الاختبار الذي يسمح بمعالجة هذا كلّه وإعادة تصنيفه في خارطة هي شعريّة بالأساس وأوّلاً بأوّل.

بقي، في ختام هذا العرض الذي شئنا أن يقف فيه القارئ العربيّ غير المتوفّر بعدُ على ترجمة الكتاب على لغة الكاتب وأجوائه وشخصيّات عمله المحوريّة، أن نشير إلى بناء الكتاب. والحقّ، فمع تأكيد الكاتب في العديد من الحوارات المجراة معه بالفرنسيّة والعربيّة، وبتواضعه الأنموذجيّ، على « جهله » بفنّ الرواية وعلى أنّه لم يقرأ إلاّ « حفنة » معدودة من الروايات، إذ هو آتٍ إلى الأدب من جهة الشعر وإلى الثقافة من ناحية الدراسة التاريخية والأنثروبولوجيّة، نلاحظ في عمله هذا، وهو الأوّل الذي يكتبه سرداً، تمكّناً تقنيّاً عالياً ونوعاً من الحذق أكيداً. فصول الكتاب هي بنيات متراصّة، يقبض كلّ منها على نواة أساسيّة من عالم القرية أوّلاً والمدينة من بعدُ، ويرسم الشخوص والأفكار والعوالم الداخليّة والأحلام بنصاعة وكثافة. الكثير من عباراته تنتصب بتشخيص بالغ، ولها نفاذ الحكمة أو المثل السائر. صفحات أخرى يمكن اعتبارها قصائد نثر أو أغاني. هذا كلّه ربّما كان يأتيه من عالم الطفولة الذي كان زاخراً بالحكايات، والحكاية فنّ تأليفٍ وتقنية بناءٍ وشاكلة في تكثيف التجارب وترميز المعيش والحلم. ومؤكّد أنّ هذا يأتيه من تلك الأمّ الرائعة التي كانت أمّه، والتي كانت، كما تبين لنا في هذه الرواية، شاعرة وراوية استثنائيّة.

ك.ج

أروندااتي روي، ثمن العيش، ١٩٩٩
Arundhti Roy, The Coast of Living, Modern Library Paperback, New York, 1999

منذ روايتها الأولى واليتيمة « إله الأشياء الصغيرة » اهتمّت الكاتبة الهندية الشابة أروندااتي روي (٣٩ عاماً) بالقضايا الشائكة في النسيج الإجتماعي المعقّد في الهند (أنظر تعليقاً لكاتب هذا العرض على تلك الرواية في الكرمل، العدد ٥٤، شتاء ١٩٩٨). وقد بنت روايتها، التي فازت بجائزة البوكر البريطانية عام ١٩٩٧، على حكاية قطع الحدود بين الطبقات في الهند، وما أنتجه ذلك من موت مدمر وتقطّع أوصال الأسرة الصغيرة التي تجرّأت الأم فيها على إقامة علاقة مع واحد من طبقة المنبوذين.

الثيمة الأساسية في « إله الأشياء الصغيرة » إذن تدور حول الإنقسام الطولي الحاد المروّع في بنية الحياة الهندية على مدى العصور، وعدم قدرة الحداثة على

رأب هذا الصدع أو تغيير التراتب الإجتماعي في شبه القارة، التي تدّعي نخبها السياسية أنّها من بين دول العالم الثالث التي استطاعت أن تقوم بتحديث بنياتها الإقتصادية والثقافية، وتحاول اللّحاق بالعالم الأول. لكن أروندااتي روي، ومنذ مساهمتها الأولى في عالم الكتابة، تكشف الجرح العميق الذي تحياه الهند، وتضع يدها على تجاور المتناقضات واجتماع الأضداد : من عصر الفضائيات إلى عدم السماح لطائفة المنبوذين بالزواج من أيّة طبقة أخرى من طبقات المجتمع الهندي في زمان تدّعي فيه الهند أنّها جزءٌ من العالمِ الحديث، الذي يساوي بين أفراده بغض النظر عن انتمائه الديني أو العرقي أو الإجتماعي!

كتاب أروندااتي الأخير « ثمن العيش » الصادر بالإنجليزية حديثاً (منشورات مودرن لايبراري ببير باك، نيويورك) هو بمثابة مانيفستو يركز خطابه على الأفكار الأساسية التي تقيم في فضاء عملها الروائي الأول؛ أي على الكشف عن طبيعة فساد الأفكار والنظام الذي يتحكّم بحياة الجماهير الغفيرة في الهند الشاسعة المقسّمة والمنقسمة على ذاتِها.

ليس « ثمن العيش » رواية، كما يتوقع المرء من كاتبة أحرز كتابُها الروائي الأوّل أرفع جائزة أدبية في العالم الأنجلوساكسوني وأصبحت أروندااتي روي بسببه من أصحاب الملايين، بل هو عمل ينتمي إلى عالم الصحافة مازجاً التحقيق الصحفي بالتأمّل الذاتي والمادة الأرشيفية.

تعقد روي فصلي كتابها على موضوعي بناء السدود الضخمة في الهند، وإنجاز مشروع تصنيع القنبلة النووية الهندية لمواجهة التهديد النووي الباكستاني! وهي من خلال تفكيك المنطق الذي يستند إليه الخطاب السياسي الرسمي، في تبرير هذا النوع من المشاريع الخطرة المدمرة (في نظرها)، تعمل على نزع الغموض والسحر عن أسطورة الهند الحديثة المعاصرة.

يتناول الفصل الأوّل من « ثمن العيش » عملية بناء السّدود الضخمة في الهند، التي بلغ عددها أكثر من ٣٦٠٠ سد، وتسببت بنزوح أكثر من خمسين مليوناً من البشر الذين يسكنون على ضفاف الأنهار التي بنيت السدود على مصبّاتها أو ضفافها، كما أدّت إلى تشريد ملايين من طبقات الهند الفقيرة وحرمانها من مصادر رزقها الرئيسية وتدمير أراضيها وإغراقها لتضطر هذه الملايين الغفيرة، إلى النزوح إلى مناطق بعيدة عن أماكن سكناها التي اعتادت عليها، وليعمل أفرادُها من ثم عمال مياومة ينتقلون من مكان إلى مكان إن سمحت لهم الدولة بذلك. إنّ روي، في سبيل الكشف عن تراجيديا العيش التي تعاينها في هذا الكتاب – المانيفيستو، تجمع المادّة الأرشيفية التي تستفيد منها في هذا الفصل وتعيد تنظيمها لتصبح ذات معنى بالنسبة للقارئ. وتتكوّن هذه المادّة الأرشيفية من التقارير الحكومية حول السدود الضخمة وما تصرح به هذه التقارير من أعداد البشر، الذين أجلتهم عمليات بناء السدود والفيضانات التي نشأت عن عمليات تحويل مجرى الأنهار، ومن تقارير البنك الدولي والقروض المقدمة للحكومة الهندية لبناء تلك السدود، وأعداد المهندسين والمستشارين والبيروقراطيين، برواتبهم وحوافزهم الضخمة، الذين وظفهم البنك الدولي؛ لتصل في النهاية إلى بدعة

السدود الحديثة التي تخلّص منها العالم الغربي بسبب الأضرار الكبيرة التي تسببها للطبيعة ونظام الري والأمراض التي تنشأ عنها. ولهذه الأسباب قام العالم الغربي بتحويل هذه المشاريع إلى العالم الثالث ليحافظ على عوائد القروض الضخمة، ويموّل جيشه من البيروقراطيين والمستشارين الذين سرعان ما يظهرون على المسرح، متكاتفين كلما طالبت دولة من دول العالم الثالث البنك الدولي بإعطائها قرضاً طويل الأجل، للمساعدة في تمويل مشروع سدٍّ ضخم يجعلها تدخل العصر الحديث من أوسع أبوابه!

الأساسي في كتابة أرونداتي روي عن مشاريع السدود الضخمة في الهند ليس المادة الأرشيفية المنتقاة، أو كشفها عن الأضرار الفادحة التي تترتب على بناء هذه السدود، بل البعد الإنساني المكافح ضد إستغلال النّاس والتهوين من شأنهم وتشريدهم من أوطانهم دون الشعور بأيّ قدر من تأنيب الضمير. إنّ روي تتابع عدداً من العائلات التي شرّدها بناء السدود وكيف دمّر حياتها، وتحول أفرادها من مزارعين يملكون أراضي يزرعونها ويعتاشون منها، أو صيادين يعتمدون صيد أسماك المياه الحلوة، إلى عمّال مياومة أو شحاذين يمدون أيديهم للناس. وتشير روي إلى أنّ أعداداً كبيرة ممّن شرّدتهم السدود هم من أبناء طبقة المنبوذين في الهند، تلك الطبقة التي كرّست الكاتبة الهندية الشابّة كتابها الروائي الأوّل لإنصافها والحديث عن عمق الشّرخ الإجتماعي الحاد، الذي يقيم في أساس القارّة الهندية بسبب هذا التمييز المتوارث بين الطبقات الإجتماعية.

الفصل الثاني والأخير من كتاب روي يدور حول «القنبلة النووية الهندية» التي صوّرت للجماهير الهندية، لا للنّخب السياسية الحاكمة فقط، أنّها استردت كرامتها الوطنية بسبب النجاح في صنعها، وأن الهند (الهندوسية) قادرة على الإنتصار على عدوتها الإسلامية باكستان. لكن أرونداتي روي تشرح في هذا الفصل، الذي تضع له عنواناً موحياً هو «نهاية الخيال»، أنّ السلاح النووي سيكون مدمراً لكلا الطرفين إن فكّر أيّ طرف باستعماله، وأنّ الوهم القائل بأن السلاح النووي ذو طبيعة رادعة لا يأخذ بالحسبان الصدف الطارئة التي تتسبب بالفعل بنشوب حرب نووية مدمرة. ما هو دال في هذا الفصل هو كلام روي عن جهل العامّة بما يمكن أن تسبّبه حرب نووية وسخريتها من كلام النخب السياسي عن سبل الوقاية من الحرب النووية بتناول حبوب اليود، والبقاء في المنازل وعدم الخروج، وتناول مخزون المنزل من الماء والطعام، والكف عن شرب الحليب، وأن يتناول الرضّع الحليب المجفف فقط! وتعد روي هذا الكلام جنوناً مطبقاً لأن الحرب النووية إذا نشبت بالفعل فلن توفر أحداً ولن تنفع معها سبل الوقاية التي تنصح بها الدولة الجماهير، التي اعتقدت أنها عزّزت هويّتها بعد نجاح التجارب النووية التي قامت بها الحكومة الهندية.

تمزج أرونداتي روي، في كتابها الممتع (١٢٦ صفحة من القطع الصغير)، بين أسلوب الريبورتاج الصحفي، الذي يقدم مادة أرشيفية تغذيها أصوات الناس والمختصين والمشاركين في التحقيق، والتأمل الذاتي وتذكير القارئ بالكاتب الذي يقف وراء السطور التي تتتابع تحت بصره. بهذا المعنى فإن

روي، الكاتبة الحاصلة على جائزة البوكر وصاحبة رواية «إله الأشياء الصغيرة»، حاضرة بقوة في الكتاب؛ فهي موجودة في خلفية الفصل الأول، الذي يحكي عن خرافة التحديث في الهند من خلال إنشاء السدود العملاقة، عبر التركيز على هويّة المهجّرين من منازلهم وأعمالهم وأراضيهم من طبقة الأديفازي (المنبوذين)، وكذلك من خلال تصوير البيئة التي راقبت الكاتبة من خلالها تحولات الحياة الهندية المعاصرة في زمن التحديث المدمر للطبيعة الهندية. إنّها نفسها زاوية النظر التي نعثر عليها في «إله الأشياء الصغيرة» سواء من حيث الرسالة التي تشدد عليها الرواية أو من خلال البيئة المرسومة في مقاطعة كيرالا الهندية الجنوبية. أما في الفصل الثاني، الذي يتحدث عن «أسطورة» القنبلة النووية الهندية، فهي موجودة على خلفية رحلتها إلى الولايات المتحدة للترويج لكتابها «إله الأشياء الصغيرة» حيث تعاين في الإعلام الأمريكي النظرة الغربية الإستعلائية والدهشة المتقزّزة من إمكانية أن تنجح دولة من العالم الثالث في امتلاك السلاح النووي. لكن هذه المشاعر المجروحة، التي تترك أثرها على الكاتبة الهندية الشابة، سرعان ما تتبدد وتتوارى في خلفية المشهد عندما تكتشف حجم الرعب الذي يمكن أن يسبّبه انفجار حرب نووية بين دولتين جارتين مثل الهند وباكستان، وكذلك عندما تتبيّن حجم الجهل بالدمار الشامل الذي يهدد الهند قبل باكستان إن نشبت تلك الحرب النووية.

«ثمن العيش» يعيد النظر في أسطورتين إثنتين من أساطير الحداثة الهندية: السدود الضخمة والسلاح النووي، فالهند، حسب روي، إذ تدخل العصر الحديث من خلال هذا النوع من المشروعات الضخمة تدمر الطبيعة وتشرّد مواطنيها وتهدّد مستقبلهم وتجلسهم في بيت الرعب الذي يفغر فاه ليبتلعهم إن نشبت في يوم ما حرب نووية لا تبقي ولا تذر بين الهند وباكستان.

فخري صالح